مُخْتَصَرُ

التَّوحِيد ﴿مَضَامِينُهُ عَلَى الفِكْرِ وَالحَيَاة﴾

د. إسماعيل راجي الفاروقي

ترجمهُ: د. السيد عمر

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أمّا بعد، فكتاب التَّوحيد للفاروقي هو أحد الكتب التي تحدثت عن التَّوحيد وكيفية تفعيله في أرض الواقع، وإلباس كل شيء في الوجود ثوب التَّوحيد، باعتباره هو المعيار الأسمى للوجود، وهو مرجع الحكم على الأشياء بالخير أو بالشر بصفته هو المعيار الإلهي المطلق.

ويعتمد الكاتب في كتابته أسلوب عرض الأديان والمذاهب الفكرية ومقارنتها مع التَّوحيد بوصفه هو جوهر الإسلام، ويُقرر أنه لا عودة للأمة إلَّا بالإسلام، فبِهِ تتخلص من داء الشعبوية -الذي يفترسها جسداً وروحاً. والناظم القومي - بالنظر للخبرة التاريخية- مفلس تماماً ما لم تكن مظلته هي التَّوحيد، وألف الفاروقي رحمه الله كتابه من ثلاثة عشر فصلًا في عقد تلك المقارنات وبيان أفضلية التَّوحيد فيها، وهي:

١. التَّوحيد: جوهر الخبرة الدينية.
٢. التَّوحيد: لُباب الإسلام.
٣. التَّوحيد: مبدأ التاريخ.
٤. التَّوحيد: مبدأ المعرفة.
٥. التَّوحيد: مبدأ الغيب.
٦. التَّوحيد: مبدأ الأخلاق.
٧. التَّوحيد: مبدأ النِّظام الاجتماعي.
٨. التَّوحيد: مبدأ الأمة.
٩. التَّوحيد: مبدأ الأسرة.
١٠. التَّوحيد: مبدأ النِّظام السياسي.
١١. التَّوحيد: مبدأ النِّظام الاقتصادي.
١٢. التَّوحيد: مبدأ النِّظام العالمي.
١٣. التَّوحيد: مبدأ الجمال (لم نتطرق إليه هُنا).

وهدفنا في هذا المُختصر، هو استخراج الصورة النقية للتوحيد -التي أراد الكاتب عرضها- بإيجاز، وإخراج الكتاب من مجال مقارنة الأديان، بحيث يصير مُعبرًا عن التَّوحيد بوصفه جوهر الإسلام، مع بعض المقارنات اليسيرة مع المذاهب الفكرية المعاصرة كالليبرالية وغيرها، والتقليل من الإسهاب فيما هو مترسخ أصلًا للناشئ في وسط إسلامي.

وفي كثير من مواضع هذا المختصر إعادة صياغة لكلام الكاتب أو زيادة عليه، لِفَكِّ ما نقدر عليه من مُغلَق الكتاب، مع عدم الإخلال بالبنية الأساسية له، ولا بالهدف من ورائه، سائلين الله العون والتوفيق...



مُقَدِّمَة

تقوم هذه الدراسة على ثلّة من الأولويات الضرورية لفهم الطرح المقدم هنا للتوحيد، والوقوف على مبرراته، وتلك الأولويات هي:

١- حقيقة أن الأُمَّة الإسلامية في واقعها الراهن في وضع تعيس لا تُحسد عليه بالمقارنة مع غيرها من الأمم.

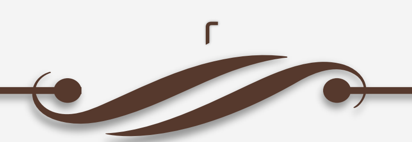
٢- السنة الإلهية الثابتة في قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٣- حقيقة أن الأُمَّة الإسلامية العالمية الواحدة لن تقوم لها قائمة ولن تستعيد وصف الأُمَّة الوسط، إلَّا بالإسلام فهو أساس دعوتها ومصدر أفضليتها.

تقبع الأُمَّة الإسلامية اليوم في مكانة متدنية على هرم النِّظام العالمي، وهي أمة ممزقة مشتتة بين تشكيلة من الدول القومية المنقسمة على نفسها، المتخاصمة مع الأمم المجاورة لها، والعاجزة عن إنتاج ما تستهلكه وما تحتاج إليه، بل وحتى غير قادرة على الدفاع عن نفسها والوقف في وجه خصومها وأعدائها، بل تقابلهم برضوخ واستسلام تام، لا علاقة له من قريب أو من بعيد بالنهج الرباني الذي فضّل الله به الأمة، فهي على الرغم من كثرة عدد أفرادها، وغناها بالأراضي والموارد الغزيرة، ذُلَّت لأعدائها ببعدها عن أمر ربها.

وإن قائمة هذه الأُمَّة لن تكون إلَّا بعودتها إلى أمر ربها ونهيه، ولن تحقق مقصود الخلافة في الأرض إلَّا بتفعيل التَّوحيد حقًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فتطبيق هذه السُنَّة الكونية، سنة التغيير، هو مفتاح عودة الأُمَّة لسابق عهدها، وهو سبيل استعلائها على سائر الأمم من جديد، أن تغير من نفسها وتعود إلى ربها.

وبالنظر إلى محاولات التغيير والإصلاح التي قامت بها الحركات الإسلامية في الحقبة الأخيرة، فجلها لا يعدو كونه بناء لصُرُوحٍ على رمال، ذلك أن قبلة المصلحين -حتى المخلصين منهم- انصبت في اتجاه تحقيق المنافع المادية، مع غفلة عن الاحتياج الروحي للأمة، مع أنه هو الأهم، فهو الرابط الذي يُحرك الناس ويجمع كلمتهم، وهو الباقي إذا ما سقطت المنفعة المادية، فانطلقت تلك الجماعات الإصلاحية من منطلق القومية بمفهومها الغربي، وأعاد الأُمَّة إلى دائرة الشعبوية (الوطنية) التي خلصها الإسلام منها، مُذ أعلن أنه هو الرابط الأوثق والأعلى بين كل أفراد الأمة، لا يعلو عليه شيءٌ من وضع البشر، وجاهليَّاتِهِم.



إن المسلم المُحرر المتمتع بعقيدة توحيدية راسخة، قائمة على تصورٍ لإلهٍ واحدٍ، ليس كمثله شيء، وشريعة منقطة النظير، حاكمة لظاهره وباطنه، ولسلوكه الحياتي بكل جوانبه؛ لا يستطيع أن يتفاهم مع مبدأ القومية باعتباره معوقًا لمشروع الأُمَّة العالمية الواحدة، التي تنبذُ كل تعصبٍ قائمٍ بين البشر لغير دين الله، انظر لما اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين وقال الأنصاري: يا للأنصار، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟»، فَقَالُوا: لَا وَاللهِ، إِلَّا أَنَّ غُلَامَيْنِ كَسَعَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ، لِيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَإِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نُصْرَةٌ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ».

انظر كيف عاتب رسول الله ﷺ صحابته على دعوتهم للقومية، ووصفها بـ "الجاهليَّة"، وجعل مرد الأمر إلى الأخوة في العقيدة، في دين الله، فليس المهاجرينَ في صفٍ والأنصارَ في صفٍ، بل كلّ في صفٍ واحدٍ؛ هو صفُّ التَّوحيد، كلهم تحت رايته سواء.

وبالعودة لحركات الإصلاح؛ فإنها فشلت لعدم توصلها أو إدراكها لِعلَّة المأزق الراهن الذي يعاني منه المسلم، وهي غياب البُعد الروحي الدافع لتغيير العالم، وهو الذي يُحفِّز للنهوض بعد كل سقطة، وهو الذي يجعل المرء صلباً ثابتاً في وجه موجات التغريب والتحديث، ولذلك نرى أن أغلب من سقط وانجرف في موجات التغريب هم من أصحاب الأهواء، الذين لا يُدركون غاية وجودهم أصلًا ولا ماهيَّة الرسالة التي حُمِّلوها وكُلِّفوا بالإنذار بها.

وساء الحال أكثر في حركات الإصلاح الجديدة حتى ظهرت بين أفرادها بعض الدعوات المحاكية للغرب، من الاستهانة بأمر الدين، والتقليل من شأنه، وادعاء عدم شموله، وحاجته للإضافات البشرية، بل والدعوة إلى تجاوز الدين كليًّا؛ فتحولت دفة الإصلاح من دعوة إسلامية مختلِطة بنزعة قومية جاهليَّة، إلى دعوة قومية بحتة بستار إسلامي، فَرغبتهم هي التحرر من سلطة الغرب، بالطرق التي سنَّها الغرب، لا الطريقة التي أمر الله بها.

وضرب الفاروقي رحمه الله مثالًا بجماعة الإخوان المسلمين، قائلًا: "وحاولت جماعة الإخوان تجسير الفجوة بين ماضي الأُمَّة وحاضرها، والبناء على فكر حركات الإصلاح الإسلامية على مدى قرن من الزمن قبل تشكُّل تلك الحركة. ومع أن البداية كانت رائعة وواعدة؛ فإن الحركة أخفقت في مسيرتها بالمستوى ذاته الذي بدأت به في عهد مؤسسها. وسمحت لنفسها بالاستدراج إلى مأساة خوض معارك جانبية، لم يُكتب لها فيها النجاح، إلَّا أن ذلك كان بمنزلة الخطيئة الصُغرى لتلك الحركة.

أما خطيئتها الكبرى، فتمثلت في: عجزها عن بلورة رؤية كونية للإسلام، تُبرز علاقته بكل لحظة من حياة البشر، وبكل أطياف النشاط الإنساني المعاصر. وتجلت تلك الرؤية الجامعة في فكر الشيخ حسن البنا، ولكنها تلبست بقدر من الغموض والتشوش في فكر من جاءوا من بعده من قيادات الجيل الثاني. ولسوء الحظ، انشغل كبار أولئك



المفكرين الإسلاميين بأمور أُخرى غير ترسيخ تلك الرؤية الكونية الإسلامية، ولم ينهضوا بواجب إتمام المهمة التي شرع الإمام حسن البنّا فيها، وهي: **تعميم الوعي في صفوف الأُمَّة بمبادئ الإسلام، وبيان أنها صالحة بوصفها أساسًا لوجود الإنسان في عصره، وقابلة للبقاء.**"

والحاصل أن حركات الإصلاح تلك نمت من حيث عدد الأفراد المنتسبين إليها، إلَّا أنها لم تنْمُ من حيث عمقها الفكري، فلم يُغيروا ما بأنفسهم، وبالتالي ليس لديهم شرط التغيير الذي سنَّه الله.

وبالنظر إلى ما يدعو إليه الإسلام، فإن الأُمَّة لن تقوم لها قائمة ولن تعود لسابق عصرها طوال أربعة عشر قرنًا، إلَّا بتحقيق معنى الإسلام وتفعيل التَّوحيد في أرض الواقع، فرؤية المسلم بأنه هو الخليفة في الأرض بأمر الله تعالى، هي التي تصنع منه محركًا لعجلة التاريخ الإنساني. والسير وفق رؤية الإسلام، والالتزام الصحيح بها، هو الشرط الأساس لقدرة الإنسان على التصرف على نحو مسؤول مع مجمل مكونات الزمان والمكان، ويتدخل المسلم بوصفه خليفة الله في الأرض، فهو حقٌ له وواجبٌ عليه، في المعطيات الزمانية والمكانية المادية والنفسية والاجتماعية والروحية، محكومة بسنن كونية، ليُعيد توجيه مسارها على نحو يُحقق النموذج الإلهي لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان على هذه الأرض. ومن هذا المنطلق يتجه تدخل المسلم في إعادة صياغة الزمان والمكان إلى إعادة بنائهما وليس الهرب منهما، ولا التخلص منهما كما تدعوا إلى ذلك بعض المعتقدات الجاهليَّة.

ولا يسعى المسلم في عملية إعادة بناء الزمان والمكان إلى إشباع إرادته الخلاقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون، وتأسيسًا على ذلك تصير عملية تشكيل الزمان والمكان عبادة وطاعة لله، ويتقي الإنسان بذلك شر ثلاث آفات، وهي: ادعاء القدرة على قهر الطبيعة، والإصابة بغرور القوة حال نجاحه، والإصابة باليأس والعجز حال فشله.

ولُباب ما يسعى إليه الكتّاب هو تعريف الشباب المسلم برؤية الإسلام للوجود، على أمل التحرك بهم مسلحين بالوعي بتلك الرؤية على طريق الإصلاح الحقيقي للنفس، وتمكينهم من تحديث معطيات الرؤي الفكرية المبكرة التي قدمها رواد الحركة السلفية العظام، وتسليط الضوء على العلاقة الوثقى بين الإسلام وكل مجالات الفكر والنشاط الإنسانيين.

مع التدليل على أن التَّوحيد وحده هو الركيزة النواة التي ينبغي تأسيس أي برنامج إصلاحي في أي مجال كان عليها، فالتَّوحيد هو جوهر الإسلام ونواته، ولا نجاح يُرتجى لأي حركة إصلاحية لا تنطلق منه.

التَّوحيد: جَوهَر الخِبْرَة الدِّينِيَّة

أولاً: التَّوحيد كَخِبْرَة دِينِيَّة

مفهوم الرب هو نواة الخبرة الدينية، والركن الأول في الإسلام (لا إله إلّا الله) يعني ببساطة مركزية الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمسلم في كل زمان ومكان وفي كل فعل وفي كل فكرة، فوعي المسلم ممتلئ بوجود الله على الدوام، وهو شاغله الأسمى.

ولا ينظر المسلم الموحد إلى الله باعتباره خالقاً خلق العالم وفقط، بل على أنه أيضًا هو لُبُّ المعيارية في الكون، أي أنه هو صاحب الأمر والنهي في الكون، وأن كل الأفكار والأفعال مردُّها إلى المعيار الإلهي المطلق الذي وضعه الله عز وجل، وتلك المعايير الإلهية -المتمثلة في الأمر والنهي- هي التي تحدد للإنسان ما يجب أن يكون عليه كل ما في الوجود، تحقيقًا للإرادة الإلهية المتمثلة في خلافة الإنسان في الأرض.

والله سبحانه وتعالى هو الغاية النهائية المطلقة لكل المخلوقات، لذلك هو مصدر قيمتها، وما لم يضع الإنسان تلك الغاية الأسمى في الحسبان فإنه يفقد الأساس القيمي الذي خُلق له. ويترتب على هذا التصور حتمية أن يكون الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد، ليس كمثله شيء، إذ هو المدبر لكل أمر، وهو مصدر القيمة لكل الخليقة، وهو صاحب الأمر والنهي المطلقين، وهو المرجعية المتجاوزة لكل المرجعيات الثانوية الأُخرى التي يضعها البشر لأنفسهم، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

والتفرد التَّوحيدي السابق هو الذي يؤكد عليه المسلمُ في لا إله إلّا الله، وليس مجرد وجود إله، فكل الرسالات السابقة الوارد ذكرها في القرآن لم تكن للإخبار بوجود إله، إنما كانت لتوجيه الناس إلى ربها واعتبار تشريعاته وأحكامه هي المعيار المطلق في مختلف نواحي حياتهم.

إن بؤرة الخبرة الدينية الإسلامية مشغولة بإله واحد أحد فرد صمد، ليس كمثله شيء، ولا معقب لإرادته الهادية لكل جوانب حياة الإنسان. وقد كان استغراب الملائكة من خلق الخليفة هو أنه قد يُفسد ويسفك الدماء، وفي المقابل هم معصومون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وبيّن الله تعالى لهم أنه يعلم ما لا يعلمون، إذ أن الإنسان بوصفه مخلوقًا حرًا فإنه قد يرتكب السيئات، إلّا أن امتثاله للإرادة الإلهية نابعٌ عن اختيار، إذ أنه مخير بين الالتزام وعدمه -مع تحمل التبعات كاملة- وهو ما يُميزه عن الملائكة التي ليست لديها القدرة على معصية الله، بخلاف الإنسان الذي وُهِب الحرية التي تُمكنه من الطاعة والمعصية، ويختار هو الطاعة ويُقدمها على المعصية بكامل رغبته في عبادة ربه جل وعلا، وليس لغير الإنسان من المخلوقات قدرة على تحمل هذا البلاء -حرية المعصية- والقيام



به حق قيامه، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

فسنن الله تعالى التي فطر الخليقة عليها، التي لا تتبدل ولا تتغير، تجعلها تسير وفق المنهج الذي تسير عليه. ولا تستطيع الطبيعة انتهاك القانون الطبيعي، ولا أن تفعل غير الوفاء بكامل متطلباته. أما الإنسان الذي تحلَّى بالشجاعة وقبل حمل الأمانة، فهو قادر على طاعة الأمر الإلهي وعصيانه، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾.

ومن هنا يتضح أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتوفر فيه الشرط الرئيس للفعل الأخلاقي، وهو الفعل الحر، والقيم الأخلاقية أرقى من القيم الطبيعية، إذ أنها تستبطن قبولها هي والقيم النفعية الوسائلية مسبقًا وتُجاوزُهما، ومن ثَمَّ تتبوأ مكانة أسمى من كليهما. ومن الواضح أن القيمة الأخلاقية هي الشق الأسمى من الإرادة الإلهية التي لأجلها خُلِق الإنسان، وأُنعِم عليه بالخلافة في الأرض دون غيره من المخلوقات.

والإنسان يخضع -شأنه شأن المخلوقات الأُخرى- للسنن الإلهية التكوينية الطبيعية، في وجوده المادي على ظهر البسيطة، بوصفه شيئًا من الأشياء الكائنة على الأرض. إلَّا أنه يتبوأ -في المقابل- مكانة لا نظير لها بوصفه الكائن الحر الذي يتحقق عبره الشق الأسمى من المشيئة الإلهية في الكون. فالإنسان صاحب رسالة كونية لكونه خليفة أصيلاً لتطبيق الامر الإلهي التكليفي بوصفه الشق الأسمى من الإرادة الإلهية.

وحاشا لله أن يخلق مخلوقًا كونيًا مثل الإنسان ثُمَّ لا يُزوده بالقدرة على معرفة الإرادة الإلهية، وأن يجعل كل ما في الأرض طيعًا مسخرًا له، بالدرجة التي تكفي لقيامه بواجبه التكليفي الأخلاقي، أو أن يسكنه أرض لا يختلف حالها بتفعيل الإرادة الإلهية فيها عن حالها حال نكوصه عن القيام بواجبه التكليفي.

ومن هنا منَّ الله على الإنسان بإرسال الرسل، وتنزيل الوحي الإلهي المُمَثِّل للمعيار الإلهي المطلق الذي يُرشد الإنسان للخير والصواب ويُحذره من الشر والخطأ في ضوء الشق الأخلاقي من الإرادة الإلهية. وكلما انحرفت البشرية عن مضمونات الوحي الإلهي جرَّاء التحريف أو النسيان أو الإفساد فيه، أرسل الله تعالى رسله من جديد لاستعادة الوعي الإنساني الصحيح بالإرادة الإلهية، على نحو يوافق قدرات الإنسان النسبية للزمان والمكان، وما يطرأ عليهما من تحولات، تحقيقًا لغاية واحدة، وهي أن يظل في متناول الإنسان على الدوام القدر الكافي من المعرفة الصحيحة بالأوامر الإلهية التكليفية الأخلاقية، إلى أن جاءت آخر رسالة بمحمد ﷺ وتمثلت فيها المرجعية المتجاوزة الصالحة إلى قيام الساعة في معرفة بالأوامر الإلهية التكليفية الأخلاقية بأسمى وأشمل صورة ممكنة.



ولا عُذر للإنسان في التقاعس عن أداء الواجب الإلهي التكليفي، والقيام بموجبات الخلافة، في ظل تمهيد الله تعالى لها لخلافته فيها، وتزويده بالوحي، وبالقدرة على التعرف على المشيئة الإلهية بالعقل. والحق أن سبيل خلاص الإنسان الوحيد، في منظور الإسلام، هو أداؤه لرسالته التي خلقه الله تعالى من أجلها، والمحددة في قوله تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والفعل الإنساني لا يُعد جديرًا بوصفه بالأخلاقي إلَّا إذا كان فعلًا حرًا مختارًا، منجَزًا من بدايته إلى نهايته بخليفة حُرٍّ، ومؤسَّس على إرادته الحرَّة. ودون مبادرة الإنسان وجهده تنهار القيمة الأخلاقية للفعل من أساسها. ومن البراهين القرآنية الدالة على ذلك؛ قوله تعالى: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وبوصف التَّوحيد هو جوهر الخبرة الدينية، فإن ذلك يقتضي أنّ الإنسانَ يولدُ على الفطرةِ، متجاوزًا لنقطةِ الصفر، فهو مفطور على التَّوحيد الخالص، مزَّودٌ بالأدواتِ التي بها يعرف الخالقَ عزَّ وجلَّ، ويُدرك قِيمة وجوده، إلَّا وهي -أي الأدوات- العقل، والحواس، والوحي المُنزَّل، ويجد الأرض مذللة له يتصرف فيها كيفما شاء وفق السنن الإلهية الكونية الحاكمة. ومناطُ فلاح الإنسان، ليس مجرد التوصل لمعرفة الخالق، وإنما في الاستجابة لأمر الله التكليفي الأخلاقي، بالتصرف في الأرض وتغيير الزمان والمكان وفق المعايير الإلهية المطلقة، منتظراً بعد ذلك حكم الله العادل الذي لا محاباة فيه لأحد، ولا إجحاف.

وبنور تلك الخبرة -التَّوحيدية الخالصة- يندفع المسلم بنفسه على مسرح صنع التاريخ، رغبة في تجسيد النموذج الإلهي الذي بلغه إياه رسول الله ﷺ بالوحي المنزل عليه، ولم تعد في حياته قضية أحب إلى نفسه وأغلى من تلك القضية، إلى حد صار معه مستعدًا للتضحية بنفسه في سبيلها. وبرؤية صحيحة لمهمته في الأرض؛ **نظر المسلم إلى الكرة الأرضية بأسرها على أنها ساحة فعله، ونظر إلى أمته على أنها تشمل البشرية بأسرها عدا حفنةً يسيرةً من المتمردين، لا يمتثلون إلى الكلمة السَّواء معها إلَّا بقوَّةِ السلاح.** فالمسلم إنما يسعى لأن تكون الكلمة العليا في ساحة فعله هي لله وحده، وأن يدين كل من على ظهر البسيطة لله جل وعلا، انطلاقًا من قول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله أيضًا: ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.



ثانيًا: التَّوحيد كَرُؤْيَة لِلعَالَم

تحوي كلمة التَّوحيد لا إله إلَّا الله كل ما يحتويه الإسلام من تنوع، وثراء، وثقافة، وتعاليم، وحكمة، وحضارة، فالتَّوحيد هو رؤية عامة للحقيقة، والواقع، والعالم، والزمان والمكان، وتاريخ الإنسانية ومصيرها، وفي لُبِّه تكمن المبادئ الآتية: الثنائية – التصورية – الغائية – القدرة الإنسانية وقابلية الطبيعة للتطويع – المسؤولية والمحاسبة، ويلاحظ أن كل تلك المبادئ مترابطة ومرتبة، مبني بعضها على بعض، على النحو الآتي تفصيله.

أ- الثُّنَائِيَّة

بالكون نوعان متمايزان: إله، ولا إله. خالق، ومخلوقات، ونظام الخالق مغاير تمامًا لنظام المخلوقات، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق وحده لا شريك له، وهو المتعالي على جميع خلقه، والحَكَمُ عليهم، أما النِّظام الآخر فيتعلق بالزمان، والمكان، والخليقة، ويشمل كل المخلوقات، أي كل ما سوى الله، والله سبحانه وتعالي مغاير لخلقه في كل شيء، إذ ليس كمثله شيء من المخلوقات، ولا تدركه الأبصار.

ب- التَّصَوُّرِيَّة

العلاقة الرابطة بين الخالق والمخلوق هي علاقة تصورية في طبيعتها، من جهة أن الله تعالى منح الإنسان ملكة الفهم، وفطرهُ على درجةٍ منها تكفي للتوصل إليه سبحانه واليقين به وباستعلائه على خلقه، ويُمكن بملكة الفهم التوصل إلى حقيقة أن الله هو الخالق والمستحق للعبادة إما بتدبر الوحي المنزل من عند الله، أو التفكر في السنن الإلهية المبثوثة في الخليقة.

ت- الغَائِيَّة

طبيعة الكون غائيَّة، بمعنى أن له غاية خلقه الله من أجلها، وهو يؤدي غايته تلك في الحدود المرسومة له. فالكون لم يخلق عبثًا، ولا لعبًا، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ والغاية التي خلق الله لها الإنسان هي العبادة، وسخَّر له كل الكون كساحة عمل يحقق فيها التكليف الأخلاقي. والدرس المهم من إشفاق السماوات والأرض من تحمل أمانة التكليف الحر، وقبول الإنسان لها مختارا، أن التكليف -غاية خلق الإنسان- يقتضى أمرين بالضرورة: **القدرة، والاختيار**، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.



ث- القُدرَة الإنسَانيَّة وقابِلية الطَّبِيعَة للتَّطوِيع

يترتب على حقيقة أن لكل شيء غاية خلق من أجلها، أن للكون في مجمله غاية، وأن تحقيق تلك الغاية داخل في حدود قدرة الإنسان في هذه الحياة ضمن الزمان والمكان. ويحدد القرآن تلك الغاية بالعبادة في قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ووهب الإنسان القدرة على العمل وتغيير المكان والزمان، وجعل الطبيعة مذللة له بالقدر الكافي ليحقق مقصود الخلافة.

ج-المَسؤولِيَّة والمُحَاسَبَة

لما كان الإنسان مُكلَّفًا بغاية من أجلها خُلِق، وسُخِّر له ما في الكون، ومنح القدرة على تغييره، بمعنى آخر، لما كان الإنسان هو المخاطب بالفعل الأخلاقي، وجب من ذلك أن يخضع للمساءلة والحساب على ما كُلِّف به، وآيات القرآن الدالة على المحاسبة كثيرة، منها: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، ومالم يحاسب الإنسان ويسأل، في موضع ما، عن أفعاله، فإن إمكانية إساءته استخدام الحرية الممنوحة له يظل احتمالًا راجحًا، فالحساب وتحمل المسؤولية شرطٌ ضروريٌّ للالتزام الأخلاقي أو للإلزام الأخلاقي.

ومبدأ المحاسبة متأصلٌ في طبيعة المعيارية ذاتها. وهو ما يعنيه الإسلام بيوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، والحاصل أن طاعة الله تعالي هي سبيل الفلاح والسعادة، وفي المقابل معصية الله هي سبيل البوار والضنك وسوء المنقلب.

وتمثل تلك المبادئ الخمسة سالفة الذكر لُبّ التَّوحيد، وخلاصة الإسلام، وهي بذات الدرجة عصارة الحنيفية، وهي أساس دعوة الأنبياء والرسل، وعلى تلك المبادئ فُطِر الإنسان أصلا، قال عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وخُلاصة تلك المبادئ أن الإسلام إنما يدعو إلى العمل بحقيقة المغايرة بين الخاق والمخلوق، واستعلاء الأول على الثاني، وإدراك غاية الوجود وتفعيلها في ساحة العمل الإنساني الأخلاقي الحُر، الساحة التي ذللها الله للإنسان ليتصرف فيها وفق ما أمره؛ على أنه سيُحَاسَب في الآخرة على ما بَدَر منه في الدنيا، من احتكام للمعايير الإلهية والعمل بها، أو الإعراض عنها واستبدالها بالاحتكام إلى هوى النفس، إذ أن مرد الفلاح هو في العمل بمقتضى تلك المعايير، ومرد الخيبة والندامة في العراض عنها وإحلال غيرها محلّها. فمُقتضى كون المرء مسلمًا لله، أنه يرى بغير لبسٍ أنَّ الله تعالى وحده، وليست الطبيعة ولا أي مخلوق هو مصدر إمداده بالمعيار، ولا إرادة مع إرادته، وأنَّ الله أعطى كل شيء قيمته وفق تلك المعايير، والمسلم بالتالي -باحتكامه لتلك المعايير- قِيَمِي التوجه، بغْيَةَ التعرف على الواجب الأخلاقي الصحيح.



التَّوحيد: لُباب الإسْلَام

مما لا ريب فيه أن الإسلام هو جوهر الحضارة الإسلامية، ومن الثابت أيضًا أن جوهر الإسلام هو التَّوحيد، أي الشهادة بان الله تعالى هو الواحد الاحد، المطلق الخالق، المتعالي ربُّ كل ما في الوجود ومالكه.

ومن البدهي للمسلمين أن للثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية جوهراً معرفيًا هو: التَّوحيد، وهذا الجوهر قابل للوصف والتحليل. وموضوع هذا الفصل هو تحليل التَّوحيد بوصفه جوهراً للإسلام، أي بوصفه المبدأ النواةَ الأسمى الحاكمَ للإسلام ولثقافته وحضارته.

أولًا: أَهَمِّيَّة التَّوحيد

الحضارة الإسلامية تستمد هويتها من التَّوحيد. فهو الوشيجة التي تربط بين مختلف مكوناتها، على نحو يُشكّل منها جسدًا عضويًا متكاملًا نُسمِّيه الحضارة. ويربط التَّوحيد بين العناصر المتباينة، ويصبغها بصبغته، ويُعيد صياغتها على نحو تتناغم فيه بعضها مع بعض، ويشد بعضها أزر بعض. ويحول ذلك الجوهر -التَّوحيد- تلك العناصر دون أن يُغيِّر من طبيعتها بالضرورة، ويمنحها شخصيتها الجديدة بوصفها مقومات له. وقد تختلف درجة التحول الذي يُحدثها هذا الجوهر في العناصر على متصل يمتد بين درجة يسيرة وأُخرى جذرية. والمراد بالتحول اليسير هو التأثير على شكل العنصر (مع الإبقاء على وظيفته)، أم التحويل الجذري فهو المتعلق بالتأثير على وظيفته؛ إذ أن وظيفة العنصر هي التي تشكل العلاقة بينه وبين الجوهر.

وكثرت الآيات القرآنية الدالة على أن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وحده لا شريك له، فهو سبحانه المتفرد باستحقاق العبادة، والعمل لوجه الله تعالى ابتغاء مرضاته هو الغاية التي يجب أن تتوجه إليها كل رغبة إنسانية، وكل فعل إنساني، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

والدليل على أن التَّوحيد هو الغاية الأسمى، وهو التكليف الإلهي الأهم والأشمل؛ هو الوعد الرباني بمغفرة كل الذنوب عدا الشرك المنافي لحقيقة التَّوحيد، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾.

ومن الجلي أنه لا قوام لأي أمر آخر في الإسلام إلَّا بالتَّوحيد. فبمجرد المساس بالتَّوحيد؛ ينهار صرح الدين ذاته بأكمله. ذلك أن مقتضى المساس بالتَّوحيد هو الشك في كون الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد وحده لا



شريك له. ومفاد المساس بالتَّوحيد الوقوع في الظن بمشاركة آخرين لله تعالى في القداسة، وهو ما يستلزم بالتبعية الشك في وجوب طاعة أوامر الله واجتناب نواهيه.

ويقتضي التَّوحيد امتناع تعدد الآلهة، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، إذ أن ذلك يمنع تحقق المطلوب الرئيس لتعريف الإله أنه هو الأعلى، يُخضِع الجميع لإرادته، وأن يكون هو مصدر السطلة العليا، والمرجعية المطلقة، لا يُشاركه في ذلك أحد، إذ ليس بمقدور الكون أن يطيع سيدين ولا أن يعمل بانتظام سُنني ويكون على هذا التناغم الذي هو عليه؛ لو كان في الوجود أكثر من مصدر نهائي واحد تتلقى الموجودات منه امرها.

وخلاصة ما سبق أنه لا إسلام إلّا بالتَّوحيد. ومن هنا فإن الاعتصام بالتَّوحيد هو حجر الأساس لكل ما يتعلق بالتقوى والتدين والفضيلة. ومن الطبيعي في ضوء ذلك أن يسمو التَّوحيد بالمُلتزِم به في ميزان الله تعالى إلى أعلى مقام، ويؤهله لأعظم مثوبة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

ثانيًا: الطَّبع المُتَعَالِي لله فِي الإسْلَام

يُعلن الإسلام من منطلق التَّوحيد أن الله تعالى خلق البشر قادرين على معرفته في علوه المطلق، فتلك هي الفطرة التي فطر الله البشرية عليها، والتي تمثل القاسم المشترك بين كل بني آدم، وهذه الفطرة ملكة يتعرف بها الإنسان على الله في وحدانيته، وعلوه على خلقة.

والركن الأول الذي تُبنى عليه العقيدة الإسلامية، هو شهادة أن: لا إله إلّا الله، ويفهم المسلم هذه الشهادة على أنها تعني نفي وجود أي شريك لله تعالى في الوجود في حُكمِه وقضائه، ونفي إمكانية أن يُمثل أي مخلوق الإله، أو يرمز له بأي شكل من الأشكال، فهو ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وهو الذي ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الطَّبع المُتَعَالِي لله فِي اللُّغَة عِنْد المُسْلِمِين

حافظ المسلمون على اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم وخلفياتهم العِرقية والثقافية في كل أرجاء المعمورة بكل دقة وبذات الدرجة على مراعاة الطبع المفارق المتعالي لله في التعبير عنه سبحانه بلسان القرآن، وهو اللسان العربي، واعتبر المسلمون أن القرآن هو الكتاب العربي الذي أنزله الله، وأن ما عداه من تراجم لا تعدو كونها تعبيرًا عن معنى هذا الكلام، وليس قرآنًا يُتعبَّد به، ولا تصح به صلاة.



ومع مرور الوقت وضعف اللغة العربية في أذهان المسلمين، وقع البعض في خطأ التشبيه، وكثر ذلك بين المسلمين الجدد المنتقلين إلى الإسلام من عقائد أُخرى اعتادت على إله قابل للتشبيه والتجسيد، وكان من الصعب على أمثالهم تصور الطبع المتعالي للإله المتعالي على خلقه.

وأدت الجهود المبذولة لحفظ اللغة -بكل قواعدها وأبوابها- على مر العصور، إلى إزالة معظم مشكلات التأويل التي وقع فيها البعض. وبِحِفْظِ اللُّغة العربية -التي هي لغة القرآن- ظلَّ تنزيل الأحكام القرآنية على شؤون الحياة الدائمة التغير، متجددًا على الدوام، وكذا ترجمةُ المبادئ القرآنية العامة إلى تشريعات مُحدَّدَةٍ مُعَبِّرَةٍ عن المهام والمشكلات المعاصرة. وبَقِيتْ إمكانية إدراك معاني التعبيرات القرآنية، والأسس التي تُفْهَم مَضَامِينهَا في ضَوئِهَا، مُمَاثِلَةً الآن بالتأكيد لما كانت عليه بالنسبة للنبي ﷺ والصحابة قبل ١٤ قرنًا. وظلَّت مَعَايير وضوابط الفهم المُؤَسَّسَة في عصر النبوة حَاكِمَةً بعده لمسألة إدراك المعاني وتطبيقِها في أرض الواقع. فمعيار الإحسان أو الإساءة في تطبيق المبادئ القرآنية على المشكلات المعاصرة، مرهونٌ بفهمِ معاني القرآن على النحو ذاته الذي فهمها به النبي ﷺ.

وواقع الأمر أن قدرة أي باحث على فهم الوحي الآن على النحو ذاته الذي فهمه به المسلمون في صدر الإسلام، في عهد التنزيل، يُمثل معجزة في تاريخ الأفكار.

ثالثًا: الإِسْهَام الخَاص لِلإِسْلَام فِي الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة

يُعبِّر التَّوحيد بعبارته بالغة الإيجاز "لا إله إلَّا الله" عن معان ثلاثة، على المستوى القِيَمي، أولها: **أن الخليقة هي المادة التي ينبغي تجسيد الإرادة الإلهية المطلقة فيها**. والخليقة التي هي من صنع الله تعالى لا عيب فيها ولا نقص، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وبَدَأَ خَلقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

وسخر الله الأرض بما فيها وما عليها لتكون هي ساحة العمل الإنساني، التي يجب على الإنسان العمل فيها وفق المعايير الإلهية المطلقة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

واستمتاع الإنسان بالقيم النفعية للخليقة مباح، فالله تعالى يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.



أما المعنى القيمي الثاني لشهادة التَّوحيد، **فهو حقيقة أن الإنسان لا يحتاج إلى مُخلص يُخَلِّصه من العقبات والصعوبات التي يتعرض لها، فهي أساسٌ في طبيعة البلاء والتكليف الموجه إليه.** بل كل ما يحتاجه هو تكريس نفسه لرسالته الكونية على الأرض، وقياس قيمة نفسه بقدر إنجازه لها، أي لتلك الرسالة التي كلفه الله بها، فهذا هو المقياس الحق الذي يمنح القيمة لكل شيء في الوجود، ما إذا كان موافقًا لمقتضى تلك الرسالة أم مخالفًا لها، فالتَّوحيد بني آدم للفلاح، لا إلَّا الخلاص -كما في المسيحية-، ويعدهم بالثواب في الدنيا والآخرة بقدر يتناسب مع أعمالهم.

ويتمثل المعنى الثالث الذي تُعبر عنه شهادة التَّوحيد على المعنى القيمي، هو أنه بما أن الخير الواجب التحقيق هو الإرادة الإلهية، وبما أن تلك الإرادة واحدة بالنسبة لكل المخلوقات، لكونها متعلقة بالخالق وحده، ويتعين عليهم جميعًا الخضوع لها، **فالكون من المنظور الإسلامي هو ساحة عمل الإنسان التي يؤدي فيها رسالته، ويسعى لتحقيق الإرادة الإلهية فيها، مع كامل اليقين بالمفارقة التَّامة بين الخالق والمخلوق، وأن الإنسان عابدٌ لله في مُلكِهِ وملكُوتِهِ.**

التَّوحيد: مَبْدَأ التَّارِيخ

يُلزم التَّوحيد الإنسان بأخلاقية للعمل، يُقاس في ظلها الاستحقاق أو عدم الاستحقاق، على حسب درجة النجاح التي يُحققها الفاعل الأخلاقي -الإنسان المكلف- في تغيير مسار المكان والزمان، ويُلزمه التَّوحيد كذلك بأخلاقية النية كشرط مسبق للدخول في ساحة الوفاء بمقتضيات أخلاقية العمل.

ولذا، يتوقع الإسلام من المسلم الملتزم، أن يتدخل في سير الزمان والمكان. فلا مناص أمام المسلم بعد ان يشهد بعبوديته لله وحده ويُكرِّس حياته وكل طاقته لعبادته، ويُسلِّم بوجوب تفعيل الإرادة الإلهية في هذه الحياة الدنيا بزمانها ومكانها، بدخوله في حومة العمل والتاريخ ليُحدث التحول المرغوب في ساحتهما، تعبيرًا عن النموذج الرباني الذي كُلِّف بالسعي إليه.

وقد أفاض القرآن في ذكر هدف الإنسان وسبب وجوده في هذه الحياة الدنيا، وأن تلك الدنيا هي ساحة العمل التي يجب أن ينطلق فيها وفق الإرادة الإلهية، وأن أداء هذا التكليف على نحوٍ موافقٍ لمراد الله عز وجل هو سبيل الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

وبناءً على ذلك؛ تكتسب شؤون العالم الدنيوي في منظور الإسلام أهمية بالغة الخطورة والجدية، فهو هنا لأداء رسالة ولصنع التاريخ، لا ليلهو ويلعب غير مكترث بما كُلِّف به من أمر ثقيل أشفقت من الأرض والسماء، والمسلم واثق أن ما قدره الله للتاريخ في نهاية المطاف هو نتيجة مباشره لسلوكه هو في التاريخ، على مستوى الأفراد والمجتمعات.



وهكذا يُمكِّن التَّوحيد المسلمَ من النظر إلى نفسه على أنه هو محرك التاريخ؛ فهو الخليفة الوحيد الذي كُلِّف بتنفيذ إرادة الله في التاريخ، وهذا المنظور الوحيد القادر على تفسير هدي النبي ﷺ، وأصحابه، وتابعيهم بإحسان في صدر الإسلام، فالرسالة التي تنزلت على النبي ﷺ وهو في غار حراء كانت دافعاً لإعادة تشكيل عالم الزمان والمكان الواقعي وجعله محاكيًا للنموذج الإلهي المُقرر في الوحي.

ولم يستسلم النبي ﷺ لأعدائه بسلبية، بل حرص على أن يفوقهم في الحيلة والدهاء والأخذ بالأسباب الممكنة، وهاجر إلى المدينة المنورة، وأسس الدولة الإسلامية، كنقطة انطلاق للتدخل في حياة البشر أجمعين لإحداث التحول المرغوب.

وفاضت روح النبي ﷺ إلى بارئها، بعد إتمامه لمهمة الهداية وتأسيس القدوة في كل نواحي الحياة من أشدها إيغالًا في الخصوصية، وصولًا إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية، التي وحَّد جزيرة العرب من خلالها، وجهَّزها للتدخل المذهل في صناعة تاريخ العالم. ومن الأمور ذات الدلالة أن المنيَّة وافت النبي ﷺ في لحظة كان يوجد فيها جيش مجهز يقف على أهبة الاستعداد لحمل رسالة الإسلام إلى ما وراء جزيرة العرب.

ومن فيض تزودهم بالهدي النبوي وبالقدوة بالنبي ﷺ في حماسته لرسالته، اندفع المسلمون الأوائل على الفور، ودون أي تردد، إلى حلبة صنع التاريخ في كل المجالات، وغيروا الأعراف والتقاليد وأنماط الحياة اليومية للأفراد من كل الأعراق والثقافات بالصورة التي تتوافق مع المعيار الرَّباني، وبدلوا ثقافات مجتمعات بأسرها، وغيروا خرائط وحدود وآفاق وقرى مدن وامبراطوريات، وانصت إلى قول عقبة بن نافع الشهيرة وهو على شواطئ المحيط الأطلسي بالمغرب: "أيها المحيط، لو علمت أن وراءك أرضًا لعبرتك على صهوة جوادي" كنموذج دال على روح هذا الجيل الجديد الذي تربي في أحضان الإسلام. فلقد آمن المسلم بان رسالته عالمية، وتوفرت لديه إرادة تحقيق اليقين بأنه قد قام بها على الوجه الأكمل.

وكانت تلك المهمة ذات طابع أخلاقي ديني، لأن الدافع للمسلم لم يكن حيازة منصب سياسي، ولا تحقيق ميزة اقتصادية. فالمهمة التي نهض من أجله هي إقامة أرض محكومة بنظام عالمي جديد يسعى لإرسائه، لا تفلت فيه أي مظلمة من الجزاء العادل، ويتمكن الإسلام من دعوة البشر إلى وحدانية الله تعالى، وإلى وحدة الحق والقيمة.

فالمسلم شأنه شان حي بن يقظان، قد تعيَّن عليه بعد ان عرف الله، وعرف الإرادة الإلهية أن يصنع من جذوع الشجر سفينة يعبر بها البحار، لينهي عزلته الفردية، ويبحث عن المجتمع والعالم ويصنع التاريخ.

التَّوحيد: مَبْدَأ المَعْرِفَة

الإيمان في المنظور الإسلامي ليس مجرد مقولة أخلاقية، بل هو أيضًا مقولة معرفية، أي مفهوم يرتبط بالمعرفة وبصحة الأخبار التي يتأسس عليها، وبناءً على ذلك فإن اليقين ضروري لتحقيق مُسمى الإيمان عند المسلمين، ولُباب التَّوحيد بوصفه مبدأ المعرفة هو الإقرار بان الله تعالى هو الحق وأنه واحد أحد لا شريك له. **ويستبطن هذا الإقرار وجوب رد أمر البت في كل خلاف وفي كل شك إليه سبحانه وتعالى، وبأنه لا دعوى تستعصي على المعايرة والبت القاطع فيها.** فالتَّوحيد إقرارٌ بوحدة الحق وأنه بوسع الإنسان الوصول إليه بالهدي الربَّاني.

وَحْدَانِيَّة الله وَوِحْدَة الحق

الإقرار بوحدانية الله بمنزلة إقرار بالحق وبوحدته. فوحدانية الله ووحدة الحقيقة أمران متلازمان، ويتضح ذلك لنا عندما نأخذ في الاعتبار أن الصدق هو خاصية خبر التَّوحيد، أي أن لله تعالى وحده لا شريك له، ذلك أنه إذا لم تكن الحقيقة واحدة، لكان من الممكن أن يكون القول بان الله واحدٌ صحيحًا، والقول بألوهية شيءٌ آخر صحيحًا، تعالى الله عن الشريك.

ويتشكل التَّوحيد بوصفه مبدأً منهجيًا من أربعة مبادئ معرفية؛ هي رفض كل ما لا يتماشى مع الحقيقة - نفي التناقضات النهائية - الانفتاح على الدليل الجديد ودليل المخالفة - التسامح.

أ- رَفْضُ كُلِّ مَا لَا يَتَمَاشَى مَعَ الحَقِيقَة

ينفي هذا المبدأ الزيف عن الإسلام، حيث إنه يضع كل شيء في متناول التمحيص والنقد، فيكفي في منظور الإسلام ثبوت مغايرة موضوع ما للحقيقة الواقعة أو إخفاقه في التوافق معها للقول ببطلانه، سواء كان قانونًا أم مبدأً أخلاقيًا، أو خبر يتعلق بالوجود أو غير ذلك.

ويحمي هذا المبدأ المسلم من القول بالهوى أو بإطلاق دعوى المعرفة بلا دليل ولا تمحيص، ويُعلن القرآن أن الدعوى غير المؤسسة على بينة وتثبُّت هي مجرد ظن أمرنا الله باجتنابه، قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إن جاءَكُم فاسِق بنَبأ فتَبَيَّنوا (وفي قراءة: فتثبّتوا) أن تُصيبوا قومًا بجهالَة فتُصبحوا على ما فعلتُم نادِمين﴾، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

ويُمكن تعريف المسلم بأنه: الشخص الذي لا يقول إلَّا الحق ولا يُمثل إلَّا الحق، حتى لو عرَّضه ذلك للخطر. فالنفاق وتلبيس الحق بالباطل، ووضع المرء القيمة الأخلاقية في مرتبة أدنى من مصلحته الخاصة أو من مصلحة عشيرته أمرٌ بغيضٌ في منظور الإسلام وجديرٌ بالازدراء.

ب- نَفْي التَّنَاقُض المُطْلَق أو النِّهَائِي

يُقصد بهذا المبدأ استحالة اجتماع المتناقضين تناقضًا مطلقًا، واستحالة أن يوجد شيئين متناقضين لا يُعرف حقيقة أيّ منهما، ويحمى هذا المرءَ من الوقوع في النزعة الشكوكية، إذ أن الموقف الإسلامي هو الجزم بوجود مخرج من التناقض بمبدأ آخر أو حقيقة أُخرى تَنْضَوِي تحتها تلك المتناقضات على نحو يُزيل ما بينها من تناقض ويُؤلِّف بين فروقها. وبخصوص ما قد يبدو من تناقض بين الوحي والعقل، فالأصل في ذلك أن نتاج التمحيص العقلي هو مصدر التناقض، إذ أن المسلم يُقرّ أن الوحي الذي هو كلام هو الحق المطلق الذي لا مِرَاء فيه، وهو أسمى من أن يعبث به الإنسان، ولا يكون أمامه عند التعارض إلَّا خيار من ثلاث:

١. مراجعة فهمه هو للوحي.
٢. مراجعة النتائج العقلية التي وصل لها.
٣. القيام بالعمليتين معًا

فالتَّوحيد بوصفه مبدأ لوحدة الحق ينفي اعتبار التعارض نهائيًا، ويُطالبنا بالتفكر مرة أُخرى في المقولات التي قد تبدو متعارضة، منطلقًا من التسليم بحتمية وجود بُعد لم يضعه الفاحص في اعتباره، وإذا وضعه فإن ذلك التعارض سيزول. لذا نقول أن التسليم بأن التعارض أو التناقض الظاهري نهائي، أمرٌ لا يستَسِيغُه إلَّا ضِعاف العقول.

ت- الانْفِتَاح عَلَى الدَّلِيل الجَدِيد أو دَلِيل المُخَالَفَة

ويحمي هذا المبدأ المسلمَ من الليبرالية، والتعصب، والنزعة المحافظة الداعية إلى الركود. ويتجه هذا بالمسلم صوب التواضع الفكري، ويفرض عليه أن يُذيِّل تأكيداته ونفيه بعبارة؛ "الله أعلم"، لأنه على قناعة أن الحقيقة أكبر من أن يحيط هو بكل جوانبها.

والتَّوحيد بتأكيده على وحدانية الله المطلقة، يؤكد على وحدة مصدر تلك الحقيقة، فالله تعالى هو خالق الطبيعة التي يستقي الإنسان معرفتَه منها، وهو أعلم منَّا بالآيات والسنن الكونية باليقين لأنه هو خالقها. ومن المؤكد بالدرجة ذاتها، أنه هو مصدر الوحي المُنزَّل، وعلم الله تعالى مطلق وعام، وما لدى الإنسان من العلم إنما هو من عند الله، والآيات



في القرآن كثيرةٌ دلالة على هذا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

ث- التَّسامُح كَمَبدأ معرِفي

يُرشدنا التَّوحيد إلى التفاؤل على الصعيدين المعرفي والأخلاقي، بمعنى أن كل ما نعرفه وندركه بحواسنا المنضبطة صحيح، ما لم يقم الدليل على العكس، ويُراد بالتفاؤل بوصفه مبدأً معرفيًا؛ قبول الحاضر إلى أن يقوم الدليل على زيفه. أما المراد بوصفه مبدأً أخلاقيًّا، فهو قبول المرغوب إلى أن يقوم الدليل على انتفاء تلك الصفة عنه. ويُسمى المبدأ الأول مبدأ الصحيح، والمبدأ الثاني مبدأ اليُسر، ويحمي هذان المبدآن المسلم من الانغلاق الذاتي في التعامل مع الوجود، ويحثه على الشهود والاستجابة لمتطلبات الحياة وللخبرة الجديدة ويشجعه على معالجة المعطيات الجديدة بعقل مُمحِّص، وعلى المبادرة البناءة. ومن ثم فإن هذين المبدأين يثريان خبرة الإنسان وحياته، ويُمكِّنانه من الدفع بثقافته وحضارته قُدُمًا على الدوام، مُتخلصًا من أي عوائق تقف في طريقه، إلى أن يصل إلى حدود ما نهى الله.

أما عن مفهوم التسامح، بوصفه مبدأً منهجيًا متضمَّنًا في جوهر التَّوحيد، فيعني أن الله تعالى لم يدع أمة إلَّا وبعث فيها رسولًا من أنفسهم ليُعلِّمهم أنه لا إله إلَّا الله ويدعوهم إلى عبادته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. ويعني التسامح أيضًا أن الله تعالى فطر البشر على الخيرية، وعلى الفطرة السليمة التي تُمكنهم من معرفة الدين الحق، وإدراك المشيئة الإلهية والتعاليم الربانية. وعلى الصعيد الأخلاقي للتسامح، يُحصِّن اليسرُ المسلمَ ضد كافة التوجهات النافية للحياة، ويكفل له القدر الأدنى من التفاؤل المطلوب للاحتفاظ بحالة الاتساق والتوازن، مهما صادف من محن ومصائب، فهو موقن بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

التَّوحيد: مَبْدأ الغَيْب

في الإسلام؛ الطبيعة من خلق الله تعالى، وهي منحةٌ منه. وهي بوصفها مخلوقة ذات غاية كاملة ومنظَّمة. وهي بصفتها منحة إلهية بمنزلة نعمة وخير خالص موضوع تحت تصرف الإنسان. والهدف هو تمكين الإنسان من فعل الخيرات وتحقيق السعادة والفلاح. وتتلخص الرؤية الإسلامية للطبيعة في كونها تتصف بصفات ثلاث: **النِّظام، والهدفية، والخيرية.**

أولًا: الكَوْن المُحكَم

من مقتضيات شهادة ان لا إله إلَّا الله، الإقرار بأن الله وحده لا شريك له هو الخالق الذي أعطى لكل شيءٍ خلقه، وإليه تنتهي أسباب كل ما يحدث في الكون، وإليه مصير كل ما هو كائن، وأنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر.

ويعني الدخول في مثل هذه الشهادة بحرية واقتناع، وبفهم واعٍ لمضمونها، إدراك أن كل ما يحيط بنا من أشياء أو من أحداث، وكل ما يحدث في المجالات الطبيعية والاجتماعية والنفسية، هو من صنع الله تعالى، وهو نتاج للسنن التي بثَّها في الكون، ولقدرته وتصريفه لأمره بلا معقب عليه، وتحقيق لغايةٍ ما يُريدها الله تعالى.

ولا يعني ذلك أن الله تعالى هو مسبب كل شيءٍ بشكل مباشر، وإنما أن كل ما يفعله غيره - من الخلق - وكل الأسباب المخلوقة في الوجود لا تفعل فعلها في نهاية المطاف إلَّا بتصريفه ووفق إرادته سبحانه وتعالى.

ومن جهةٍ أُخرى لا يعني ذلك أن الله سبحانه مسؤول عن أفعالنا، بل نحن المسئولون عنها، وعلينا أن نؤمن بأن ثقل أعمالنا او خفتها، في الميزان الأخلاقي داخل في نطاق مسؤوليتنا الفردية وحدنا. إلَّا أن قوة الإيجاد التي بها يكون الشيء أو لا يكون؛ تظل مِلكًا لله تعالى، ومحل تصريف بلا شك. فالبشر ليسوا خالقين. وهم لا يملكون موتًا ولا حياة، وإن كانوا بمنزلة أسباب للإماتة أو الإحياء.

وبمجرد أن يحقق المرء مثل تلك الشهادة، ويقر بفعل الله تعالى في كل شيء وفي كل حدث، فإنه يتلمس الهدي الإلهي، وينقب عن آيات الله وسننه في الكون، ومقتضى مراعاة ذلك في التعامل مع الطبيعة هو السعي للتمكن في العلم الطبيعي، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وإذا كان الوجود كله هو في حقيقة أمره تجليًا للسنن التي هي من أمر الله تعالى والممثلة لإرادته التي فطر الموجودات الطبيعية عليها، فإن الكون يُعتبر في نظر المسلم مسرحًا حيًّا، كل حركة فيه وعليه إنَّما هي من صنع الله وبإرادته. والمسرح نفسه وما عليه قابل للتفسير بتلك السنن ومن منطلقها.

فمقتضى التَّوحيد أن تُؤمن أن الله وحده هو السبب الأول لكل ما في الوجود وقدرة الله تعالى ليست بمنأى عما يجري في الكون، على نحو يُحيله إلى إله فرغ من الخلق، وترك الكون يعمل بذاته دون تدخل منه سبحانه، كما زعم الفلاسفة الذين زعموا انتقال علاقة السببية من الخالق إلى الخليقة دون أي تدخل من صانع الكون في كونه.

ويعني التَّوحيد بالضرورة نفي وجود أي قوة فاعلة مع الله تعالى، الذي فطر الكون، على سنن أبدية لا تتغير ولا تتبدل. ويرقى ذلك إلى مصاف الإقرار بأن كل مبادرة من جانب أي قوة طبيعية محكومة في المطاف بقدرة الله.

ثانيًا: الكَوْن الغَائِي

لا يقتصر نظام الطبيعة على النِّظام المادي للغلل والمعلولات، وهو النِّظام الذي يجلبه المطان والزمان، وما شاكل ذلك من مقولات نظرية، لأفهامنا، فالطبيعة ساحة، بذات الدرجة، لغايات. **فلكل شيءٍ غاية، يساهم بتحقيقها في إثراء الكل وتحصيل توازنه.**

وكل شيء في الوجود من أصغر حصاة جامدة في الوادي ومن أصغر الاحياء المائية العالقة على سطح مياه المحيطات، ومن السوطيات الميكروبية الكائنة في أحشاء صرصور إلى المجرات وشموسها، إلى أشجار الصنوبر العملاقة والحيتان والفيلة، وبالجملة فإن كل مخلوق بأصل نشأته، ونموه، وحياته ومماته، يحقق غاية خلقه الله ليحققها، ضرورية لبقية المخلوقات.

وتجمع علاقة الاعتماد المتبادل بين كافة المخلوقات. والانسجام الكامل بين كل مقومات الوجود هو أساس نظامه. ولنقرأ في هذا المقال قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَـلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

وهذا هو مقتضى التوازن البيئي الذي بات الإنسان المعاصر على وعي به، نتيجة الخطر الداهم الناجم عن التلوث الذي أصاب البيئة في هذا العصر. أما المسلم فكان على وعي بهذا المفهوم منذ قرون عديدة، وكان ينظر إلى نفسه على أنه في صميم هذا التوازن، بوصفه جزءً منه شانه شأن أي مخلوق آخر في هذا النِّظام الكوني الغائي، إلَّا أنه مُيِّز عنهم بحرية الفعل وأخلاقيته.

ثالثًا: الطَّبِيعَة بِوَصفِهَا مَمْلُوكَة لله تَعَالَى بِالأَصَالَة

يقوم المبدأ الإسلامي على ركيزتين، الأولى ما ورائية غيبية، قوامها اعتبار كل ما في الوجود مملوكًا لله تعالى. والثانية هي البعد الأخلاقي في تعامل الإنسان مع الموجودات. فالإسلام يعلم البشر أن الطبيعة خُلقت لتكون مسرحًا لعمل الإنسان، وحقلًا ينمو فيه ويزدهر، ويستمتع بنعم الله تعالى، ليبرهن بقيامه بذلك على جدارته الأخلاقية. ويرتبط هذا المبدأ بأربعة معطيات:

أ- أنَّ الطَّبِيعَة مِلكٌ لله تَعَالَى وَلَيس لِلإِنْسَان

الطبيعة مملوكة لله تعالى، وحصل الإنسان على حق الانتفاع بها على النحو الذي حدده سبحانه وتعالى له. وهو مطالب برعاية ما وضعه الله تحت تصرفه بصفته أمانة، ومن المقطوع به أن حق الانتفاع لا يُخَوِّل للإنسان حق تدمير الطبيعة، ولا استغلالها على نحو يُفسد التوازن البيئي أو يدمره.

ومن المفترض أن يسلم الإنسان -بوصفه خليفة بأمر الله تعالى في الأرض- الأمانة لربه لدى موته في وضعية أفضل من تلك التي تسلمها عليها.

ب- أنَّ نِظَام الطَّبِيعَة مُسَخَّر لِلإِنْسَان

سخر الله الطبيعة للإنسان بحيث يستطيع أن يدخل عليها ما يشاء من تغيير، فلقد خلقها الله مطواعة وقابلة لتعديل الإنسان عليها، فالسماء والأرض والبحار بكل ما يحتووه مسخر للإنسان ليستكشفه، ويستفيد منه، ويستمتع به، ويتفكر فيه، وآيات القرآن في ذلك كثيرة واضحة الدلالة. فكل الخليقة هي من أجل الإنسان، وهي في انتظار انتفاعه بها، والتصرف فيها بمقتضى سلطته التقديرية التامة المسئولة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾، ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ في الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكُمْ﴾.

ت- أنَّ الإِنْسَان مُكَلَّف بِالتَّعامُل مع الطَّبِيعَة عَلَى نَحو أَخلَاقِي

فالسرقة والخداع والإكراه والاحتكار والاستغلال والأنانية، وبلادة الحس تجاه احتياجات الآخرين كلها خصال لا تليق بخليفة مؤتمن في أرض الله، وهي من المحرمات القطعية. ويمقت الإسلام التبذير، ويحرم الإسراف وإنفاق المال رئاء الناس. فالثقافة الإسلامية لا تمشى مع أي من تلك الخصال. والمسلم التقي هو من يتجنب الفقر والعوز ويمتلك القناعة، وتظهر عليه نعمة الله، ويرطب لسانه بشكر الله على ما رزقه به. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

ث- أنَّ الإِنْسَان مَأْمُور بِتَفَهُّم سُنَن الله فِي الكَون وَتَدَبُّر آيَاته

فالإنسان مأمور بالتفكر في خلق الله والتنقيب عن سنن الله الكونية. وتضفي حقيقة أن الطبيعة من صنع الله تعالى، وهو فاطرها ومدبر أمرها، هالةً من التكريم عليها، تستوجب تجنب إساءة استخدامها أو استغلالها على نحو سيء، ومقتضى هذا الشعور تجاه الطبيعة، هو التعامل معها ومع كل شيءٍ فيها وفق الغاية التي خلقه الله لها.



التَّوحيد: مَبْدَأ الأخْلَاق

يؤكد التَّوحيد أن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته، وأن الإنسان تحمل الأمانة التي لم تطق السموات والأرض تحملها وأشفقن منها، وفحوى هذه الأمانة الإلهية هي الوفاء بالشق الأخلاقي من المشيئة الإلهية، الذي يقتضي بحكم طبيعته أن يتحقق بحرية. والإنسان هو الكائن الوحيد المفطور على نحو يؤهله لفعل ذلك. وحده الإنسان لديه القدرة على الفعل أو عدم الفعل، هو المؤهل لتحقيق الإرادة الإلهية بشقها الأخلاقي. فممارسة الإنسان لحرية الإرادة في التعامل مع الامر الإلهي التكليفي هي التي تجعل سعيه أخلاقيًا.

أولًا: إنْسَانِيَّة الإسْلَام

يُعلمنا التَّوحيد أن الله تعالى رحيم، وأنه سبحانه خلق كل شيءٍ لغاية، ومن ثم لم يُخلق الإنسان لعبًا ولهوًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. وأنعم الله تعالى على الإنسان بالحواس والعقل والفهم، بغية تأهيليه للقيام بتلك المهمة الجليلة، المتمثلة في **طاعة الله عن حرة واختيار**. وتلك هي العلة والغاية النهائية لخلق الإنسان، وهي جوهر تعريف مفهوم الإنسان ومعنى حياته ووجوده على الأرض.

وإذا قيل أن الإنسان هو أكرم مخلوق، فإن ذلك يرجع بالقطع إلى تفرده بتلك المهمة، بمعنى كونه بفعله وسعيه الأخلاقيين يُمثل جسرًا كونيًّا وحيدًا، يتم منه إدخال الشق الأخلاقي من الإرادة الإلهية -الأسمى من شقيها التكوينيين الأوَّلِي والنَّفعي- إلى عالم الزمان والمكان وتصييره تاريخًا.

ولا حدود للتكليف الذي وضع على كاهل الإنسان وحده، فالفعل الأخلاقي خاص بالجنس البشري كله. ومسرحه ومادته هو كل ما في السماوات والأرض. ولا ينتهي هذا التكليف عن الجنس البشري مادامت السماوات والأرض. والتكليف هو أساس إنسانية الإنسان وهو لُب معناها ومحتواها، وهو الذي يجعله في مكانة أسمى من جميع المخلوقات.

وبخلاف جميع المعتقدات، فوحدها إنسانية التَّوحيد هي التي تحترم الإنسان بوصفه مخلوقًا دون تأليه أو تحقير، وهي الوحيدة التي تَدد قيمة الإنسان بمناقبه. وهي الوحيدة التي تُحدد فضائل ومثاليات الحياة الإنسانية بمحتوى مماثل للحياة الفطرية.

ويستحيل في نظر الإسلام الفصل بين الأخلاق والدين، فالأخلاق مؤسسة بالكلية على الدين. ويعني توحيد الله وإفراده بالحكم والأمر أن يكون ما حكم به وأمر هو المعيار للسلوك الإنساني لا شيء غيره.



ويأسر وعي الإنسان -من منظور التَّوحيد- تجاه نفسه والعالم لُبَّه، فهو وعي يتملك نفس صاحبه ويملأها بالخوف والرجاء معًا. ومن شان استيلاء مثل هذا الوعي على الإنسان أن يحيا حياته بكل جوانبها في ظل استحضار مراقبة الله تعالى، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ووفق المعايير المتماشية مع الإرادة الإلهية، وفي ظل الإحساس بحساب وشيك ينتظره، موازين العدالة فيه مطلقة، ولا يُمكن تصور وضعية أكثر من هذه الوضعية في الانضباط الذاتي الكامل، والتحفيز الذاتي الفعال.

ثانيًا: الغَايَة مِن خَلْق الإنْسَان

كما هو معلوم أن الغاية من خلق الإنسان هي كما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وجوهر ما يجري التأكيد عليه هنا هو بكل وضوح: هدفية الحياة الدنيا. وجحد هذه الغائية هو بمثابة تشكيك في أي معني لهذه الحياة. وعبودية الإنسان -التي هي غاية خلقه- تقتضى أن يكون كل أمرٍ من أمور حياته محكومًا بتحقيق تلك الغاية، حتى أدنى الأمور من الأكل والشرب والجنس والراحة وغير ذلك.

ثالثًا: بَرَاءَة الإنسَان

يُقرر الإسلام أن الإنسان يولد بريئًا، ويرسم طريقه في الحياة بعد مولده، وليس من قبل ذلك. فالإنسان يولد بريئًا مما كان عليه آباؤه وأسلافه. ويدحض الإسلام تمامًا فكرة وجود خطيئة أصلية أو معصية موروثة، أو مسؤولية يتحملها أحد بالإنابة عن أحد، أو غير ذلك مما تُعرِّف به العقائد الفاسدة - كالنصرانية - الإنسان.

ويعلن القرآن أن كل إنسان لن يتحمل وزر أحد غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فكل نفس تحمل بما فعلته هي من خير ومن شر، يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِكِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾.

وخلاصة القول أن الإسلام يقصر مسؤولية الإنسان على أعماله هو نفسه، أعماله التي يقدم عليها بنفسه بوعي وإرادة حرة، ويحدث به بعض التحول في مجريات الزمان والمكان. إذ أن الإثم والمسؤولية مقولتان أخلاقيتان، لا تقومان إلى بالنسبة لفعل حر وواع.

ويقرر الإسلام أن الإنسان يقف لدى مولده على عتبة الأخلاقية، لا له ولا عليه من حيث البعد الأخلاقي، ويتمثل واجبه في القيام بعمل إيجابي، بفعل جديد، وليس بالتخلص من عبء ماضٍ ما. فأخلاقية المسلم ذات توجه مستقبلي كامل، حتى حين تكون غاية في المحافظة والركود. ومن هذه الإيجابية الأخلاقية يستمد المسلم حيويته. ويصير نموذجًا للنشاط والإقبال على الحياة.



رابعًا: الخَلق عَلَى صُورَة الله

يرى الإسلام أن الإنسان خُلِق على صورة الرب، قال تعالى: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾، وأن هذه الصورة فطرية ودائمة في كل البشر، بمعنى أنها: جزء من طبيعة الإنسان لا يُمكن فقده، إذ يُؤكد الإسلام أن لإنسان وُهِب روحًا، يعرفها بأنها من روح الله.

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ ومن هنا حلل النفس الإنسانية إلى مقوم حيواني يستقي منه الإنسان أحاسيسه وشهواته، ومقوم فكري يستقي منه عقله. وهكذا يتشكل جوهر إنسانية الإنسان.

ويرى الإسلام -بناءً على هذا التصور- أن كل البشر سواسية، إذ يعودون إلى أصلٍ واحد، إلى آدم وحواء، وأنهم أصلًا من تراب، وأساس التفاضل بينهم هو التقوى لا غير.

خامسًا: التَّفعِيل

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خلقه الله لتفعيل تلك القيم وتلك الإرادة بحرية، ولوجه الله تعالى، ويتعين عليه من ثم ان يحرك الموجودات ويعيد تشكيل الطبيعة ليجسد فيها وبها البعد الأخلاقي وفق المثال الرباني الذي عرفه بالوحي المنزل وهو مكلف بإخراج إمكانات الموجودات من حيز الكمون إلى حيز البروز والتحقق، وبقدر نجاحه في هذه المهمة تُقاس درجة فلاحه وسعادته الأخلاقية.

وبينما تُعد النية الصالحة بمنزلة إجازة لولوج ساحة الكدح والسعي الأخلاقيين، فإن تفعل تلك النية وتجسيدها الفعال للمطلق في التاريخ، هو إجازة دخول الجنة، بما يحمله قرب مستقر الإنسان فيها من ربه. ولا يمثل ذلك عودة إلى العواقب النفعية أو الذرائعية، فالنية الصالحة شرط مسبق، أما العاقبة فهي زيادة يسعى إليها الإسلام وليست بديلًا عن النية ولا مخصومة منها.

وبما ان العمل بطبعه علني وإيثاري، ويتعدى فاعله، وهو ظاهر للعيان وقابل للقياس بوسائل خارجية، سواء تعلق بالنفس أو الغير، وهو يحتاج بالتبعية إلى تنظيمه بالشريعة، وإدارته بمؤسسات عامة، أو بالدولة، أو بما يُسمى الخلافة، وإلى الفصل في منازعاته بواسطة سلطة قضائية عامة، يخضع لها الجميع، مرجعيتها مطلقة، حاكمة على البشر بحكم الله فيهم.

وأعلن الإسلام ضرورة الربط بين الإيمان والعمل، وذلك في غير موضع من كتاب الله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي المقابل يؤكد القرآن بذت الدرجة على سخط الله تعالى على القعود، ويُدين الإسلام العزلة والانقطاع عن العمل المجتمعي، حتى عندما يسعى المرء إلى تنمية ما بنفسه من فضائل أخلاقية، كما هو الشأن مع الرهبانية المسيحية، يقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والحاصل من ذلك كله، أن الإسلام يدعو إلى النية الصالحة في كل شيء من أمور الحياة، ولا يكتفي بذلك، بل يجعل تحويل تلك النية إلى عمل شرطٌ للجزاء واستحقاق الثواب، وهو ما يوجب على المسلم أن يتوجه بكل جوارحه وأركانه إلى تفعيل التَّوحيد في ساحة عمله -وهي الدنيا- تحقيقًا لمقصد خلقه ووجوده في هذه الحياة، وهو التفعيل المطلوب للإيمان الذي أمر الله تعالى به، وهذا هو ما قرره السلف في قولهم أن الإيمان: "**قَولٌ وعملٌ ونيَّة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية**"، فلا يكفي في الإيمان مجرد الاعتقاد القلبي بأن الله هو الخالق والمالك والرازق والسيد والحكم...، ولا يُمكن أصلًا تحقيق الإيمان بما تتضمنه تلك الكلمات من معانٍ إلَّا بالتطبيق الفعلي والعمل في ساحة البلاء، وإنما خُلقنا لنعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، نتوجه إليه تعالى بكل صغيرة وكبيرة في حياتنا، خُلقنا خلفاء في هذه الأرض، نُنفذ فيها الإرادة الإلهية التكليفية التي خُوِّلت إلى الإنسان وجُعلتْ مَكْمَن أفضليته على الخلائق جمعاء، ولن يكون هذا إلَّا بالتدخل في سير الزمان والمكان، وإخضاع كل عملٍ في ذلك السبيل إلى المعايير الإلهية المطلقة، واعتبارها هي المرجعية الأسمى المتجاوزة التي تعلو كل شيءٍ ولا يعلوها شيء.

سَادِسًا: الأُمَّتِيَّة

جاء الإسلام ليضع فكرة الأُمَّة في صميم ما يهم العامل، فارضًا عليه أن يشرك الآخرين في العمل كشركاء أو كمعاونين له. والغاية التي سعى الإسلام إلى تحقيقها من وراء ذلك هي جعل العمل جماعيًا، وجذب الذات الإنسانية الفردية أو الجماعية الأخرى إلى المشاركة بصفة فاعلين.

ويرشد الإسلام الإنسان إلى دعوة غيره من البشر وتعليمهم وتحذيرهم وتحريكهم بما يكفي للمشاركة في عمله كله بغية تحقيق ذات الغاية -العبادة وتعبيد الناس لربهم-. ولما كانت تحقيق المشيئة الإلهية مهمة لا نهائية، ووثيقة الصلة بكل البشر وبكل الأنشطة وفي كل زمان ومكان، فإن المجتمع كما يتصوره الإسلام ليس المجتمع التقليدي الضيق القائم على آصرة القرابة، بل هو المجتمع الرشيد الساعي إلى تجسيد القيمة الأخلاقية في أرض الواقع، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُم الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهم الفَاسِقُونَ﴾.

ويجمع بين أعضاء تلك الأُمَّة توافق ثلاثي؛ في الرؤية، والنية، والعمل. وقوام الأُمَّة هو الأخوة الإسلامية، وقد انطلقت في حركة سرمدية مضبوطة بالشريعة، وهذه الأُمَّة بمنزلة مدرسة مهمتها الإقناع المتواصل للعقل، وساحة لرياضة القلب تخضع فيها الإرادة للتهذيب المستمر، وميدان يتقرر فيه المصير بإقدام وشجاعة، وتجري فيه عملية صنع التاريخ.

وعلى العكس من النظريات السياسية الليبرالية، تقوم نظرية الأمتية على حكومة الحد الأكبر، لا الحد الأدنى، وتكون الحاكمية في ظلها لله تعالى والسيادة لشريعته، وليس لإرادة الأغلبية التحكمية، ويكون الخير الأسمى هو تجسيد النموذج الرباني وليس السعادة كما يتصورها أعضاء المجتمع بعقولهم القاصرة. ولا ينتمي الفرد المسلم لعضوية تلك الأُمَّة على شاكلة المجند، بل بصفة المتطوع للحياة، المعبأ على الدوام لتجسيد المطلق في أرض الواقع.

سَابِعًا: العَالَمِيَّة

تشتمل الإرادة الإلهية بحكم كليتها كل البشر، وكل زمان ومكان. فالكون كله خاضعٌ لها. والجنس البشري مفعول به لها على صعيد الامر التكويني، وفاعل مريد على صعيد الأمر الإلهي التكليفي الأخلاقي، والأرض من ثَمَّ موضوعة لسعي المسلم في مناكبها. وكل بني آدم مطالبون بالانخراط في تغييرها، وتغيير أنفسهم. وعالمية الإسلام هذه مطلقة لا تعرف أي استثناء. إذ أن الله تعالى هو رب العالمين، ومالكهم جميعًا.

والخيار المطروح هو بين أن يكون الكون كله مندرجًا تحت مظلة النِّظام الإسلامي العالمي أو يكون خارجه. ولهذا لا يعرف الإسلام تقسيم للعالم سوى إلى دار إسلام ودار حرب. ذلك أنه لا قاسم مشترك بين الالتزام بالشريعة وعدم الالتزام بها.

وكما أن الفرد مكلف بتجاوز نفسه والاهتمام بغيره، كذلك المجتمع مكلف بتجاوز نفسه والاهتمام بغيره، إذ أن الانعزالية في مواجهة البغي والعدوان والجهل والنكوص عن تفعيل القيم في أرض الواقع، استخفافٌ بأمر الله.

والنقيض الحقيقي للعالمية التي جاء بها الإسلام، هو النزعة التخصيصية الحصرية التي أخذت شكل الوَحْدانية الفردية والقَبلية في الماضي، وشكل العنصرية والقومية في التاريخ المعاصر، ولا يقبل الإسلامُ أيًّا من هذا، إذ أن سجل الإسلام ناصع البياض فيما يتعلق بالتسوية بين البشر أمام الإسلام، على نحو لا يرقى إليه سجل أي أمة أُخرى.

إن عالمية الإسلام تسمو على كل الفوارق بين البشر وتعود بهم جميعًا إلى الفطرة الأولى التي يولد عليها كل مولود. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومما لا ريب فيه أن الإسلام يُفاضل بين الناس على أساس العلم والتقوى والفضيلة والاستقامة، والتوجه بالظاهر والباطن إلى مرضاة الله، يقول جل وعلا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ويُقرر الإسلام أن هذا التفاضل مشروط بالثبات على تلك الخصال، ومزيد الترقي فيها، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

ثامِنًا: إيجابِيَّة الحيَاة الدُّنْيَا

يُستفاد من جمع ما سبق ذكره، أن الله تعالى قد مكن للإنسان في الأرض، وجعل منها مسرحًا لعبادته له. وجعل تلك العبادة داخلة في حدود الاستطاعة التي هي مناط التكليف. وتتطلب تلك الاستطاعة أن تكون مكونات عالم الحياة الدنيا مطواعة، وقادرة على تقبل الفعل الإنساني، وقابلة للتحول للنموذج الموحى به من عند الله. ومقتضى هذا التدبير الإلهي هو جعل كلًّا من الإنان والموجودات ملائمًا وجوديًّا للآخر تمامًا، فالكون مخلوق بإحكام على نحو يُيسر للإنسان استخدامه والتمتع به، والرذيلة الوحيدة الجديرة بالإنكار والمحاربة هي استعمال معطيات الوجود على نحو غير أخلاقي وعصيان أمر الله تعالى فيه.

ومن الهدي النبوي للصاحبة نهيه إياهم عن المغالاة في العبادات، والامتناع عن الزواج والمبالغة في الصيام، وعن الطيرة، وأمرهم بتعجيل الفطور وتقديمه على صلاة المغرب في رمضان، والمحافظة على نظافة أجسادهم، والتجمل ومس الطيب وحسن الثياب والمنظر، وإعطاء الجسم حقه من الراحة.

وغير ذلك مما أُمر به المسلم من فهم العالم الذي يعيش فيه، وإشباع حاجاته الفطرية، وهو يرى بكل وعي أن هذا الإشباع إنما هو نزر يسير لما ينتظره في الجنة لو ثابر على القيام بواجبه تجاه ربه.



وتبارك الأُمَّة الإسلامية ارتباط الإنسان بالسلطة وتأسيسها، قال ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهليَّة»، فالله تعالى هو من قضى باعتبار الدولة والنِّظام السياسي والمشاركة في العملية السياسية واجبًا دينيًا. فمهمة الحاكم تطبيق شرع الله. وواجب الرعيَّة هو طاعة شرع الله والنصح للحاكم ومعاونته في إقامة الشريعة. ومن واجب الحاكم والمحكوم معًا تعبئة جهودهما على الدوام لتعميق ذلك التطبيق والوفاء بكليته والتوسع الأفقي في التطبيق. وهذا هو التجسيد المطلق الذي يسعى الإسلام لتحقيقه، ويُعلن أنه ممكن على هذه الأرض وفي هذه الدنيا. والإسلام يُوجهنا ان يكون رائدنا في طلب الدنيا هو تنفيذ أمر الله لنا بالسعي فيها، مع الالتزام بالحدود الأخلاقية المتضمنة في أوامر الله تعالى ونواهيه.

التَّوحيد: مَبْدَأ النِّظام الاجْتِماعِي

أولًا: تَفَرُّد الإسْلَام

الإسلام فريد في بعده الاجتماعي بشكل مطلق بين كل ما عرفه العالم من حضارات وأديان، ففي مقابل الأديان الأُخرى، يُعرِّف الإسلام الدين بأنه شان خاص بالحياة ذاتها بزمانها ومكانها وبعملية التاريخ، معلنًا أنها بريئة وخيرة ومرغوب فيها لأنها من خلق الله تعالى ومنة منه سبحانه، فالإسلام يعلن أن الشأن الحياتي بزمانه ومكانه ذاته داخلٌ في نطاق الدين.

ويؤسس الإسلام نظريته الاجتماعية على الانتفاع بكل معطيات الزمان والمكان في سبيل تحقيق الغاية من الوجود، ويؤكد الإسلام على ضرورة النِّظام الاجتماعي، معتبرًا أن وجوده غاية فطرية لكل البشر مسلَّمٌ بها.

ويُعرف النِّظام الاجتماعي الذي يدعوا إليه الإسلام بالأمة، وعلاقية الأُمَّة بالدين ليست حيوية فحسب بل حاسمة، وهي جوهر بناء الأمة، إذ أن الشطر الأكبر من أحكام الشريعة يتعلق بالمعاملات التي هي شؤون اجتماعية في الأساس، وعلاوة على ذلك، فإن الجوانب الشخصية في الشريعة الخاصة بالشعائر التعبدية تحمل هي أيضًا بعدًا اجتماعيًّا، ويتضح هذا الأمر جليًّا في الحج والزكاة وهما ركنان أساسيان في الإسلام، وبدرجة قد تكون أقل قليلًا في الصلاة والصوم.

ومن أمثلة ذلك أن جُعِل الحج الذي لا يُحقق منافع اجتماعية محددة حج غير كامل، قال تعالى: ﴿وَأذن فِي النَّاس بِالْحَجِّ يأتوك رجَالًا وعَلى كل ضامر يأْتين من كل فج عميق. ليشهدوا مَنَافِع لَهُم ويذكروا اسْم الله فِي أَيَّام مَعْلُومَات على مَا رزقهم من بَهِيمَة الْأَنْعَام فَكُلُوا مِنْهَا وأطعموا البائس الْفَقِير ثمَّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيق﴾.



وأخبر الله تعالى أن الصلاة ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهو ما يُحقق منافع اجتماعية جمَّة بهجر الشر بإقامة الصلاة.

وخلاصة القول أن النِّظام الاجتماعي هو بمنزلة القلب من الإسلام والأولوية معقودة له في مقابل كل ما هو شخصي، أي أن الإسلام يدعو إلى عدم الوقوف على المصلحة الشخصية الفردية فقط، وإنما الالتفات إلى مصلحة الأُمَّة ككل وإعطائها هي الأولوية وتقديمها على المصلحة الشخصية حال التعارض.

ويعتني الإسلام بنشر القيم الأخلاقية في المجتمع من: (الخوف من الله، والإخلاص في العمل لوجه الله، وطهارة القلب، وحب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله، وغير ذلك من القيم السامية التي أمر بها الخالق سبحانه وتعالى)، وتُعد تلك القيم في الإسلام أمرًا ضروريًّا للغاية، وهي الشرط اللازم لكل فضيلة ولكل صلاح، ولا يستغني عنها المجتمع المسلم ككل، وإن تفاوتت مقاديرها بين أفراده، داعيًا إياهم لمزيد من العناية بها والحرص عليها كأمر حيوي.

أ- المُغَايَرَة لِلعَلْمَانِيَّة الحَدِيثَة

يُمثل النِّظام الاجتماعي في الإسلام نقيضًا تامًا للعلمانية الحديثة بكل جلاء، فالعلمانية تسعى إلى نفي أي دور للدين في تقرير كل ما له علاقة بالشأن العام، إذ هي داعية إلى التحرر من "سطوة" الدين اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا بصورة كلية، مع الإبقاء على نذر يسير خاص بالشعائر التعبدية الفردية والجماعية أو حتى عدم السماح بها في بعض الأحيان إذا ما تعارضت مع قيمة أسمى -في نظرهم- من علمانيتهم.

ودعوى العلمانية بإقصاء الدين خارج مجال العمل الاجتماعي، وبحد علاقته بالزمان والمكان، واعتباره شيئًا هامشيًّا، هو أمرٌ باطل، ويُحول المركزية في الحياة الدنيا إلى رغبات وأهواء لا تحكمها مرجعية مطلقة أسمى وأكمل منها، ومن ثَمَّ فلا يُمكن أن توجد قيم أخلاقية وأسس اجتماعية مطلقة وثابتة يقوم عليها المجتمع.

كل ذلك في مقابل الإسلام الذي يجعل المركزية لله سبحانه وتعالى، والمرجعية هي أوامره ونواهيه، متجاوزًا بها كل ما عداها من أهواء البشر وآرائهم وشهواتهم، وبالتالي لا يُعاني المجتمع القائم على تلك الأُسس والمعايير الربانية -نظريًّا- أي اضطراب أو خلل، ولا يحتاج إلى إحداث تغيرات وتبديلات تشريعية جذرية من حين لآخر لضبط النِّظام الاجتماعي.

ثَانِيًا: التَّوحيد والمُجْتَمَعِيَّة

مقتضى الإقرار بأنه لا إله إلَّا الله، هو الإيمان به سبحانه وتعالى خالقًا ومالكًا وحكمًا للوجود كله بلا شريك. ويترتب على هذه الشهادة الإقرار بأن الإنسان خُلِق لغاية، وأن تلك الغاية هي تحقيق الإرادة الإلهية التكليفية في هذا العالم.

ويقتضي ذلك من المسلم النظر إلى الحياة بزمانها ومكانها بعين الجد، لارتباط فلاحه أو خسرانه بما يقوم به من تغيير فيهما، وأمره الله تعالى أن يقوم بمهمته بالتعاون مع إخوانه من البشر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي حين تُعتبر الشريعة ثابتة ومقدسة في صيغتها المعيارية، فإنها قابلة في صيغتها الإرشادية للتكيف مع متطلبات العدالة والإنصاف الموقفية، بما يُحقق الصالح المادي التجريبي والروحي لكل من الفرد والأمة.

والأُمَّة لا يحكمها الحكام ولا المحكومون فكلهم خاضع لحكم الشريعة الإلهية، والحاكم مجرد منفذ لتلك الشريعة، والمحكومون هم مطبقين ومنفذين تلك الشريعة في ذواتهم وفي غيرهم كلٌّ حسب دوره الذي كلفه به الحاكم. فليست الأُمَّة هي التي تصنع القانون الذي يسير عليه المجتمع، وليس القانون تعبيرًا عن إرادتها الشعبية العامة، وإنما هو تعبير عن الإرادة الإلهية التي ينبغي أن يسير عليها كل البشر، فالقانون الناظم للمجتمع المسلم إلهي المصدر، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، وحينما يقول المسلم "إن الحكم إلَّا لله" وأن "الله يحكم لا معقب لحكمه"، فإنه يُعلن التزامه بطاعة المشيئة الإلهية ويقر بالحاكمية المطلقة لله تعالى على كل المخلوقات. والشريعة بذلك هي الممسكة بزمام السلطة السياسية في الأمة، وليس الحاكم الذي هو مجرد منفذ لأحكامها وضابطٌ لرعيته بها -أي الشريعة- وعليها.

ومن الواضح أن الأُمَّة ليست حكومة رجال دين، بالنظر إلى أنه ليس بوسع أحد أن يدعي قداسة ويحكم باسم الله. وهي ليست حكومة ديموقراطية، ولا حكومة أقلية ثرية، ولا حكومة فردية مطلقة. فلا مجموعة من الشعب، ولا الشعب برمته يملك أي حق في الحكم بصفته تلك. ذلك أن أيًّا منهم ليس مصدرًا للقانون، حتى يُمكن القول بأن غاية الحكم السياسي هي إرضاء ذلك الفرد أو تلك الجماعة. فمصدر شرعية وجود الأُمَّة وأفعالها هو تنفيذها للأوامر الإلهية. وبمجرد أن يتعطل تطبيع أحكام الشريعة على كل شؤون الأُمَّة تفقد الأُمَّة ميزتها الإسلامية، وتغدوا قابلة للثورة على وضعيتها المنتكسة. بل إن الثورة في تلك الحالة واجبة على المسلمين تلبية لأمر الله، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ثالثًا: شُمول المُجْتَمَع الإسْلَامِي

المجتمع الإسلامي مجتمع غير تخصصي، بمعنى أنه يُحرر أفراده من كل الاعتبارات التي اعتادت الأمم على اعتبارها معيارًا للقبول أو الرفض في المجتمع، مثل: القبيلة، والعرق، والأرض، والثقافة. بل يجمع الخلق تحت راية واحدة لا يهم تحتها أيًّا من المعايير سالفة الذكر والتي اعتمدتها الأمم الجاهليَّة في تحديد موقف الأفراد.

إن الإسلام يدعو الجميع باختلاف أنسابهم وأعراقهم، وأراضيهم، وثقافاتهم إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا في حكمه، وأن كل ما عداه سبحانه وتعالى فهو مخلوق لا يمنح لغيره قيمه، ولا يُحدد معايير ضابطة للمجتمعات من تلقاء نفسه، بل العليم الحكيم هو الذي يمد المخلوقات بالقيمة، ويُحدد المعايير والضوابط التي يُرجع إليها في كل كبيرة وصغيرة.

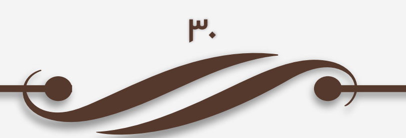
ومن ثمَّ فلا مجال في الإسلام -بحكم مساواة البشر جميعًا بعضهم البعض- أن تُقصر شرائع أو تكاليف معينة بقوم دون قوم، أو ببلدٍ دون بلد. فالأوامر والتكاليف الأخلاقية واحدة لكل أفراد المجتمع، كلٌ فيه يؤدي ما كلفه الله به، دون نظر إلى نسبه أو بلده أو ثقافته.

أ- نَقْد القَومِيَّة والقَبَلِيَّة

تتعارض نظرة القومية والقبلية مع النظرة الإسلامية للمجتمع، إذ ترتكز كل من فكرة القومية والقبلية على مرجعية بشرية وضعية، وغالبًا تكون فيها الجماعة هي المصدر الأسمى للقيم الخاصة بالقوم أو بالقبيلة، على عكس نظرية الإسلام التي تعتمد على وجود مرجعية متجاوزة -متمثلة في الشريعة الربانية- حاكمة لجميع أفراد المجتمع، لا تتغير وفق آرائهم وأهوائهم، بل يجب عليهم هم أن يكون هواهم تبعًا لتلك المرجعية خضوعًا واستسلامًا لرب العالمين.

نظرة أُخرى في أعماق القومية ألمح إليها الفاروقي قائلًا: "وتأسيسًا على ذلك -أي غياب المرجعية المتجاوزة- يصير الصراع بين تلك الجماعات غير قابل للتسوية بطبيعته. فإذا رأي كل طرف استنادًا إلى مرجعيته الخاصة أن الصراع جوهري، فإنه لا يكون هناك سبيل لمعالجته غير المغالبة بين أطرافه بالقوة، مع كل ما يترتب على ذلك من إلحاق الهزيمة بالآخر أو تدميره".

ولا تنتهي تلك السلسلة من الصراعات والنزاعات داخل القوم أو القبيلة مادامت لا تحتكم إلى مرجعية حاكمة لهم جميعًا، حاكمهم ومحكومهم، رئيسهم ومرؤوسهم، إذ لا يسمح الإسلام بوجود تلك القيم النسبية أصلًا، بل يخضع الكل في الإسلام لقيمة مطلقة، لا خطأ فيها ولا هوىً أو نسيان، إلَّا وهي شريعة الرحمن.



وخلاصة الطرح الخاص بالنظرية الاجتماعية في الإسلام: أن المجتمع المسلم مجتمع عالمي لا تحده أرض ولا يقف عند عرق أو ثقافة، ولا يختص بقوم بعينهم، بل يشمل الجميع تحت ظله بلا إله إلَّا الله محمدٌ رسول الله. مجتمع الكلمة العليا فيه لله جل وعلا، شريعته تعلو ولا يُعلى عليها، حاكمة على الجميع لا يُستثنى من سلطانها أحد، يرجع إليها أفراده في كل أمورهم خاضعين لها مذعنين، موقنين أن القيام بواجب الخلافة هو الطريق إلى الفلاح دنيا وأُخرى.

التَّوحيد: مَبْدَأ الأُمَّة

يعتمد النِّظام الاجتماعي في الإسلام على مفهوم الأمة، لذلك يُمكن اعتبار ما ذكره الفاروقي رحمه الله في هذا الفصل تكملة لما ذُكر في الفصل السابق مع بعض التفصيل.

أوَّلًا: مَفْهوم الأُمَّة

الأُمَّة مجتمع عالمي لا يقبل التجزئة، لا يتحدد أفرادها وفق عرقٍ معين أو نحو ذلك، وإنما يربط أفراد الأُمَّة رابطة العقيدة، ويتوجه كل أفراد الأُمَّة إلى الله تعالى بالعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. ويستمد أفراد المجتمع من الإسلام كل مقومات الثقافة والحضارة، ويُخضِعُون كل جديد فيهما إلى التصور الإسلامي. وهوية الأُمَّة التي تحملها هي الإسلام، وهي أسمى هوية، والتي يجب إلَّا تعلوها هوية أُخرى "كالوطنية مثالًا"، فالإسلام يسمح بوجود الاختلاف بين أطياف المجتمع الواحد مع بقائهم جميعًا خاضعين لنفس المظلة العامة، لا يخرج أحدٌ عنها بهوية أخرى مهما كانت. ومفهوم الأُمَّة بالطبع أوسع وأعمق من ذلك، ومصطلح الأُمَّة غير قابل للترجمة أو للترادف مع مصطلحات أُخرى كالدولة والقوم والوطن والشعب وغير ذلك من المفاهيم المحدودة بأرضٍ أو بعِرق.

ثَانِيًا: طَبِيعَة الأُمَّة وَخَصَائِصها

أ- المُنَاهَضَة للتَّمَرْكُز حول العِرْق

يُقر القرآن الفطرة البشرية بالتشكل في أسر وقبائل وأقوام، ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ولكن يرفض الإسلام الوقوف عند هذا الحد، إذ لا يُمكن اعتبار تلك الأنساق الجمعية سقفًا نهائيًّا تتحدد به هوية الإنسان، وطبيعة وجوده، ولا يُمكن أن يتشكل به المعيار الأخير (المطلق) للخير والشر.



وتعلو الشريعة على البشر أفرادًا وجماعات. ويعتبر التنوع العري حقيقة واقعة. في دائرة المباح في حدود معينة. ويعاملها الإسلام فيما هو أبعد من تلك الحدود على أنها شأن دنيوي خاضع لأحكام الشريعة. **وحينما تتحول العرقية إلى التمركز حول العرق، فإن الإسلام يعتبرها ردَّة إلى الجاهليَّة والكفر، لكونها تستبطن اتخاذ مصدر آخر للقانون لمعايرة الخير والشر، وهو العرقية ذاتها.**

ولا يتسامح الإسلام مع أي نزعة مغلقة ويفرض على المسلمين مناهضتها والقضاء عليها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ب- أُمَّة العَالَمِيَّة

النِّظام الاجتماعي في الإسلام عالمي التوجه، بمعنى أنه عند الحديث بلغة الإسلام، لا مجال للقول بوجود نظام اجتماعي عربي أو تركي أو فارسي أو غير ذلك. بل يوجد لكل أولئك نظام اجتماعي عالمي واحد وهو النِّظام الاجتماعي الإسلامي بما فيها من سمات وخصائص فريدة باعتبار أنه رباني المصدر.

قد يبدأ النِّظام الاجتماعي الإسلامي من دولة بعينها، نعم لا خلاف في ذلك، ولكن لا يعني هذا ان يبقى محصورًا فيها، فهذا يتنافى مع واجب الدعوة وطبيعة رسالة الإسلام أيضًا، بل يجب أن يخضع الجنس البشري كله تحت مظلة الإسلامية. فنموذج المجتمع العالمي هو النموذج الإسلامي المعبر عنه بلفظ الأُمَّة العالمية الجامعة.

ت- أُمَّة الكُلِّيَّة

النِّظام الاجتماعي الإسلامي نظام كُلِّي بمعنى أنه يقوم على اعتبار الإسلام متعلقًا بكل مجالات النشاط الإنساني. حتى المجالات التي ليس لها تشريع خاص بها معين لها، تُرك للإنسان ضبط أوضاعها ووضع تشريعاتها بنفسه وفق ما يتناسب مع المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، فهي بذلك تظل محصورة داخل إطار الربانية.

وتتضح كلية الأُمَّة الإسلامية في أنها أمة عاملة في كافة الأنشطة في كل مكان وفي كل زمان، وأن على أفرادها أن يَسُدُّوا الثغور التي تحتاج إليها الأُمَّة في كل مجال، بل ويأثموا جميعًا باتفاقهم على ترك ثغر لا تجد الأُمَّة من يشغله مع الحاجة إليه، وقد يتعين على أفراد بعينهم شغل وظائف معينة في الأُمَّة باعتبارهم الأكفأ أو لعدم وجود غيرهم في مجال معين، أي أنه لا يُمكن أن تجتمع الأُمَّة -نظريًا- على ترك أي مجال من مجالات العمل الإنساني إلَّا ولها فيه يد أو أكثر، وذلك إنما هو وسيلة لتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في عمارة الأرض والقيام بواجب الخلافة فيها بتعبيد الناس لربهم وإخضاعهم لشريعته.



وعلينا أن نعي أن تحقيق هذا الهدف الأسمى هو طريق الفلاح، وأن الفلاح يتطلب أن تكون أفعالنا في هذا السبيل موافقة للشريعة الإلهية، وأن تكون بواعثها راجعة لتطبيقها.

ث- أمَّة الحرِّيَّة

النِّظام الاجتماعي الإسلامي نظام حر، بمعنى أن البشر في المنظور الإسلامي غير مجبورين، أي يتمتعوا بالحرية في اختيار أفعالهم مع تحملهم للمسؤولية كاملة لما ينتج بناءً على تلك الأفعال، وهو ما يعطي أعمالهم قيمة أخلاقية، باعتبار أنهم ليسوا معصومين كالملائكة، بل لديهم القدرة على المعصية ومع ذلك هم مكلفون بعدم اقترافها، وهو وجه تميزهم واختيارهم لتحمل تلك الأمانة.

فالملائكة مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، إلَّا أن أفعالهم لا يُمكن أن توصف بالأخلاقية، فهم لا يملكون أي قدرة على فعل شيٍ خلاف ما خُلِقوا لأجله. والعمل الأخلاقي هو أسمى مطلوب من الإنسان، باعتباره الشق الأسمى من الإرادة الإلهية. وما دام دفع البشر إلى تفعيل تلك القيمة الأخلاقية لا يُمكن أن يتم عبر إكراههم على ذلك، فإنه يتعين تحصيله بإغرائهم بفعل ذلك باختيارهم الحر طواعية.

ج-أُمَّة الرِّسَالَة

الأُمَّة الإسلامية هي الأُمَّة المنوطة بتطبيق الإرادة الإلهية التكليفية بحمل الرسالة العالمية إلى جميع الناس والتي تدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تكون تلك العبادة في ضوء ما جاءت به الرسالة الخاتمة التي حملت الأُمَّة أمانة توصيلها، وهي رسالة محمد ﷺ.

والأُمَّة الإسلامية أمة آمرة بالمعروفة ناهية عن المنكر وجوبًا، يقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهذا النص القرآني يتضمن علة الأمر بتشكل هذه الأمة، وهي: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد حذر النبي ﷺ من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، قائلًا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ وَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ».

وقضى النبي ﷺ بأنه: «لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ»، ذلك ان ما دام هدفهم هو إقامة شعائر الدين وتطبيق الأوامر الإلهية التكليفية، وتحقيق العدالة، وإقامة الحدود، وتحصيل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإنه لا مناص من انتظامهم في أمة، أي في مجتمع عضوي له إمارة أو حكومة تحكم بينهم بما أنزل الله في كتابه وتلزمهم بحدود الله فلا يعتدوها. ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن



يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

ولما كان الإسلام يدعو إلى العمل المجتمعي، ويحظر الرهبانية المذمومة المُقعِدة عن العمل والحركة والدعوة، في حين أن أسمى صورة لتحقق الفضيلة هي التي تكون بين العبد وربه سرًا، فإن ذلك لا يُمثل أي إشكال في التصور الإسلامي مطلقًا، لأنه يُعلّق العمل أيًّا كان بالنية، ويُحدد هدفًا ثابتًا لكل الأعمال، إلَّا وهو ابتغاء وجه الله تعالى. ووجه تفرد الإسلام في هذا المضمار **أنه يقصر الإخلاص المعتبر، على الإخلاص المُترجم إلى فعل ظاهر في الواقع المُعاش، بزمانه ومكانه، فضلًا عن أمر المجتمع ذاته بهذا النوع من الإخلاص المعتبر.**

ح-أُمَّة وَاحِدَة

﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، حدد الله سبحانه وتعالى أن أمة التَّوحيد أمة واحدة غير قابلة للتعدد، فكيف تتعدد الأمو وتنقسم ولها مرتكز واحد تلتف كلها حوله؟ إن الاختلاف بين الأُمَّة وانقسامها غير مشروع إطلاقًا طالما أنهم يلتفون حول ثابت رباني المصدر لا يتغير ولا يتبدل مهما مرت عليه الأزمنة وتنقلت به الأمكنة، إلَّا وإنَّ التَّوحيد جامعهم فلا مُفَرِّق لكلمتهم.

والتفرق في دين الأُمَّة بدعة وضلالة، لأن الأُمَّة في الحس الديني الأخلاقي كالبنيان المرصوص الواحد الثابت. ومقتضى القول بغير ذلك هو السماح للمسلمين باتباع أديان أو مبادئ أخلاقية أغير تلك التي جاء بها الإسلام، وهذا باطل. وعلاوة على ذلك فإن القوم بوجود متسع للتنوع الديني الأخلاقي داخل الإسلام يعني نبذ التَّوحيد. إذ لا يُمكن التعايش بين متضادين متقابلين، ولا يُمكن الجمع بين الإسلام والجاهليَّة في آنٍ واحد، ولا يتصور عقلٌ ذلك.

وباستثناء اللحظة الراهنة، كانت الأُمَّة طيلة تاريخها كيانًا واحدًا متماسكًا، ومتراصًّا، على صعيد الخضوع الكامل لحكم الشريعة الإسلامية. أما على الصعيد السياسي فلم تكن موحدة في كيان سيادي واحد إلَّا في عهد الخلافة الراشدة والحكم الأموي، أي من ١٠ هـ إلى ١٣١ هـ فقط، ثم انقسمت عبر تاريخها على مدى ما يربو على اثني عشر قرنًا بين وحدات سياسية متعددة. **وكانت وحدة التشريع هي الأقوى**، ومنه استمد العالم الإسلامي مؤسساته ونظامه الأخلاقي وأسلوب حياته وثقافته. وعلى تلك الوحدة في التشريع تربى المسلمون من كل الأجناس، وانصهروا في بوتقة عقيدية واحدة، وفي أخوة واحدة ملتزمة بنفس المبادئ العليا. وصمدت وحدة الأُمَّة في التشريعات الإسلامية أمام كل مخاطر التجزئة، بما فيها الغزو الخارجي على مدى أربعة عشر قرنًا من التاريخ الإسلامي.

ويُمكن القول بحق أن الشريعة الإسلامية هي رأس حربة الوحدة الإسلامية عبر العالم وعمودها الفقري في آن واحد. وهي الحقيقة التي تجعل الأُمَّة جسدًا واحدًا من الأُخُوَّة العالميَّة الحقَّة. والانتظام في سلكها مفتوح لكل البشر، إما بالإمكان بحكم المولد، وإما بالفعل بقرار شخصي أخلاقي حر.

والأُمَّة في وحدتها وترابطها برباط العقيدة، هي كما وصف النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلِ جَسَدٍ وَاحِدٍ، إِذَا اشْتَكَى الرَّأْسُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»، فهي أمة عضوية، شبيهة بالجسد الواحد الذي تترابط أعضاؤه بعلاقة اعتماد متبادل بين بعضها البعض من جهة، وبينها وبين الجسد من جهة، فقيام العضو بوظيفته يخدم كل جزء آخر في الجسد، وبالتالي يخدم الجسد ككُل، وكذلك عمل الجسد كله يصب في صالح سائر الأعضاء.

التَّوحيد: مَبْدَأ الأُسْرَة

الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية النهائية المُعزِزة بالفرد من جانب وبالأُمَّة من الجانب الآخر، وتعرضت الأسرة على مدار التاريخ لبطش شديد من الجاهليات المختلفة وزاد الأمرُ سوءً مع الجاهليَّة المعاصرة بكافة صورها وأنماطها.

وللأسرة في الإسلام مكانة خاصة لا توجد في أي دين أو ثقافة أُخرى -بطبيعة تفرد الإسلام، وربانية مصدره-، فالأسرة في الإسلام وحدة تأسيسيَّة تقع في مكانة بين حياة الفرد الخاصة، وحياة الأُمَّة أو المجتمع العامة، ويقتضي مراد الله من الأسرة في الإسلام التناكُح والتكاثُر وإنتاج الذرية الصالحة التي تحمل لواء الدين من بعدهم، وتواصل مسير الإنسان لتحقيق غاية وجوده، ورسالته.

فالأسرة هي المؤسسة الاجتماعية النهائية المعززة بالفرد من جانب وبالأُمَّة من الجانب الآخر. وأهميَّتها في النِّظام القرآني مؤكدة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ولا يدين الإسلام العلاقة الجنسية بين الزوجين بل يعتبرها من الحلال الطيب الضروري. ولا يقف الإسلام عند حد إباحتها، بل يُرغِّب في ويُثيب عليها كِلا الزوجين، وفاءً بحق بعضهما البعض، ومزيد أُلفة ومودة بينهما، وحفظًا لعفَّتهما، وصونًا لهما عن الحرام، قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «أَلَا فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ، لَا عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِهِنَّ شَيْءٌ، إِنَّمَا آتَيْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَهُنَّ حَقٌّ عَلَيْكُمْ فِي بُضْعِهِنَّ، وَرِزْقِهِنَّ، وَكِسْوَتِهِنَّ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ، وَلَا يُدْخِلْنَ بُيُوتَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ، فَإِنْ فَعَلْنَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ

حلَّ أَنْ تَهجُروهُنَّ وتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِلَّا هَلْ بَلَّغْتُ؟» ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

والزواج في الإسلام يُنشئ شبكة واسعة من العلاقات الإنسانية، يدور حولها جزء كبير من الفعل الأخلاقي، ويزيد من تكاليف الإنسان. وعائل الأُسرة هو المسؤول الأول تجاه أسرته عن واجبات الإنجاب والحب والتراحم والشورى والتوجيه والتربية والتعاون والمودة، وهو القيِّم على أهل بيته، مُطاعٌ عندهم في غير معصية. ويحتل أولو القربى مكانة رفيعة في الأوامر الربانية المتعلقة بالبعد الاجتماعي، وفي القرآن من أدلة هذا، الكثير.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ جَبَلٍ أَحْمَرَ إِلَى جَبَلٍ أَسْوَدَ، أَوْ مِنْ جَبَلٍ أَسْوَدَ إِلَى جَبَلٍ أَحْمَرَ كَانَ لَهَا أَنْ تَفْعَلَ».

واختص الله تعالى الأسرةَ بجملة من الأحكام الخاصة بها وحدها، من أحكام الخطبة والنكاح والطلاق والرجعة والظهار والميراث والنفقة والسكنى وغير ذلك الكثير بتفصيل دقيقٍ للغاية، ما يُبرهن على الدور المحوري والحيوي للأُسرة في التصور الإسلامي.

وفي منظومة الأسرة وفق رؤية الإسلام؛ لكلٍ دورٌ يؤديه لا يُؤديه عنه غيره، وإلا تفسد المنظومة كليًّا أو جزئيًّا، لحظيًّا أو تدريجيًّا، ومن ذلك:

- اختصاص الرجل بالقوامة والرأي على أهل بيته.
- إيجاب النفقة والسعي على الرزق على الزوج وحده.
- طاعة المرأة لزوجها وخدمته وحسن تبعلها له بما يُرضيه.
- تربية الأبناء بالشراكة بينهما، لايُستغنى عن دور أحدهما، وإلا اختلت المنظومة (غالبًا).

وغير ذلك الكثير مما لا مجال لذكره هنا، إلَّا أن الناظر لطبيعة الحياة الأُسرية في الإسلام يرى تكاملًا بين دور كلاً من الرجل والمرأة في القيام بمسؤوليات البيت داخله وخارجه، كلٌ بما خصه به الله، أما بالنسبة للحديث عن التسوية بين الجنسين – وقد أخطأ فيه الفاروقي رحمه الله، نحسبه تأثرًا منه بحياة الغرب- فلا مجال لذلك في الإسلام، إذ أن طبيعة كلاً منهما مختلفة عن الآخر ولا يتسنى لأحدهما القيام بكافة مهام الآخر، حتى مع انتكاس الفطرة وترجل النساء وتخنث الرجال، فلن يصل أحدهما مهما فعل إلى المستوى الخِلقي لدى الآخر إطلاقًا، فهي طبيعة الخلقة التي خلقها الله، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإن أمور مثل الخروج للعمل، والسعي على الرزق، فهو أمرٌ خاص بالرجال، لا علاقة له بالنساء في الإسلام إلَّا في حالات اضطرارية تخرج فيها المرأة لكفاية نفسها ذُلَّ الحاجة والمسألة، كيف لا وهن مأمورات في كتاب ربهنَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وما ينتج عن خروجهن للعمل من اختلاطٍ -بعمدٍ وبغيره- وخضوعٍ بالقول، وتعلق القلوب، ولفت أنظار الرجال، وغير ذلك مما نهى الله ورسوله عنه، ومن تفريطها ولا بُدَّ في واجبها الأصيل -واجب البيت- وهو أمرٌ حتمي لا مجال لنقاشه، فهي امرأة وفقط! أنَّى لها أن تقوم بدور رجلٍ وامرأةٍ في آن واحد! لا بُد من خلل في هذا أو ذاك لا محالة. وكل هذا معلومٌ مشاهدٌ في بيوت الأمهات والزوجات العاملات، ولا تخفى الطوام الناتجة عن هذا، من نظرات محرمة بين الرجال والنساء، حتى يصير الأمر تعودًا، وللتعود تأثير؛ لا سيما على المرأة، التي هي بطبعها فاتنة للرجال، مُحبةٌ للإطراء، قابلة للتشجيع على التزين والتجمل -إلا متمسكة بدينها- فتزيد من لفت الأنظار إليها، ومع الوقت يتغير حجابها تباعًا، مزيدةً في تبرجها إن وُجد أولاً، واقعة فيها إن كانت قبله عفيفةً، وقد علم بحالها من خلقها فأمرها: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾، وقَرْنُ وقارها في بيتها وعدم تبرجها بقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ مزيدُ دلالةٍ على كونه من جملة العبادات المأمورة هي بأدائها.

إن دعوات النسوية -إلحادية المنبع، ليبرالية المرجع- لهتك ستر المسلمات وإشاعة الفواحش والمنكرات بدعوى "تحرير المرأة"، إنما هي أحد أذرع الجاهليَّة المعاصرة في حربها على أمة الإسلام، حتى وإن تنكرت في ثياب الإسلام فمرجعيتها لها فاضحة، وإنما يختلف المرء من دين لدين باختلاف مرجعيته، وإن مرجعيتنا نحن معشر المسلمين هي ولا بُد شريعة ربنا، وإن مرجعية النسوية هي ولا بُد غير شريعة ربنا. إن المركزية في حياة المسلم هي لله جل جلاله، فما أمر به نفذ، وما نهى عنه امتنع، أما النسويات فهواهُنَّ مرجعهُن، ما وافقه أقرنَه، وما خالفه أبَيْنَه، غير مكترثات لما به أمر ونهي، أو حلَّل وحرَّم ربُّ عَلِيّ.

فما يُطالبن به من خروج المرأة للعمل، وهتك سترها، ومساواتها بالرجال، هو أمرٌ مرفوضٌ في دين الإسلام قولًا واحدًا، فالله سبحانه وتعالى هو أعلم وأحكم وهو بكل شيءٍ محيط، وشريعته أسمى وأعلى من كل تصورٍ أو رأيٍ بشري مهما كان صاحبه، ومهما بلغ من علم، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فإذا سمعت المسلمة أمر ربها: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وسمعت غير الله قائلًا "أُخرجي واعملي واختلطي وتبرجي ونازعي الرجال عملهم ووظائفهم وأدوارهم" لمن تسمع وتطيع؟ مرجعيتها تُحدد...

التَّوحيد: مَبْدَأ النِّظام السِّيَاسِي

النِّظام السياسي الإسلامي هو نظام جماعة من البشر اختاروا أن يحكموا حياتهم بشريعة ربهم، وأن يسعوا إلى حكم العالم بما فيه من غيرهم من البشر بتلك الشريعة، ووفقًا لمفهوم الأُمَّة المذكور سابقًا، فلا يُشترط أن يسود هذا النِّظام السياسي على إقليم بعينه أو عرقٍ بعينه، أو قومٍ بعينهم، فهذا مجال محدود لا يُحقق غاية الأمة. فهي أمة مؤسسة على الإسلام فحسب. وكل من يختار الإسلام دينًا ويرضى أن تحكم الشريعة حياته هو عضو بطبيعة الحال في تلك الأمة. وهو مقتضى الركن الأول من أركان شهادة التَّوحيد. فلا تتطلب العضوية في الأُمَّة أكثر من ذلك.

ولا بُد في هذا النِّظام السياسي أن تكون شريعة الله تعالى هي الحاكمة لا غيرها من شرائع البشر التي لا يستقيم معها حال، وفي هذا الصدد يقول أبو الأعلى المودودي رحمه الله: "إن الإنسان لا يستطيع أن يكون شارعا لنفسه بنفسه، فإنه إن نجا من شرور عبودية الآلهة الكاذبة، فلا يمكن تخلصه من تعبد شهواته الجاهليَّة والاستسلام لنزعات الشيطان الكامن في نفسه."

أولًا: التَّوحيد والخِلَافَة

الأُمَّة هي واسطة إصلاح العالم وتحقيق الإرادة الإلهية التكليفية. إنها الخلافة بأمر الله تعالى في الأرض، حيث إن هذه الصفة مُسنَدَة من الله تعالى في الأصل للإنسان. ومن الأصوب الإشارة للأمة بمصطلح الخلافة لا الدولة عملًا بهذا المنظور، فهو أقرب إلى التَّوحيد، وهو مصطلح إسلامي بحت لا يعدله أي مفهوم بشريٍ آخر. والدولة مفهوم حديث يختلف عن الخلافة جذريًّا بمفهومه الغربي.

والخلافة إجماع ثلاثي للرؤية والإرادة والعمل على التفصيل التالي:

أ- إجْمَاع الرُّؤْيَة

المحتويات التفصيلية للرؤية لا نهائية بطبعها. ومن هنا لا يتعين لها الفهم الكامل التفصيلي. أما ما يُمكن فهمه وإدراكه جيدًا، بل هو الواجب، جوهر تلك الرؤية ونواتها. وما إن يُحكِم المرء فهم تلك النواة حتى يغدو قادرًا على اكتشاف وتحديد النقاط التفصيلية لتلك الرؤية، ورد أي تفصيلٍ منها إلى الأصول وإحكامه بها. والرؤية العامة للأمة واضحة وحقَّة دائمًا، قال رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أُمتي على ضلالة».

ب- إجْمَاع الإرَادَة

إجماع الإرادة أو القدرة له مقومان أساسيان؛ العصبية والحس المشترك، الذي يتعاهد المسلمون بناءً عليه أن يكونوا يدًا واحدةً في طاعة أمر الله تعالى، وفي إقامة نظام مؤسسي قادر على بلورة قراراتهم، وعلى الوصول لكل المسلمين، وتعبئتهم للوفاء بمقتضيات الدعوة. والعصبية المقصودة هنا هي عصبية الإسلام، الذي يرتبط أفراده فيما بينهم بعقيدة التَّوحيد، لا يُعلون على ذلك أية عصبية أُخرى من عصبيات الجاهليَّة.

وكان المسجد الجامع في الماضي، وينبغي أن يكون الآن، كعبة النشاط الإسلامي، ومركز آلية المدد الإسلامي. ففيه يلتقي المسلم مرارًا في اتصال حي بإخوانه تحت مظلة التَّوحيد، ويتلقى قسطًا يوميًا من الغذاء الروحي والأخلاقي والسياسي.

ويرمز وجوب استواء الصف، ومحاذاة الكتف بالكتف والقدم بالقدم، في صلاة الجماعة، إلى التمكين للترابط الحي بين المسلمين، والتماهي المتبادل بينهم، والتعاون مع الأُمَّة في عمومها بالمعنى الحرفي للكلمة، **والتأثير بعمق على وعي العابد**، بينما هو في محرابه مسلما بأن الله ربه ومولاه. وغاية هذا كله وضع أساس للتنظيم المؤسسي للخلافة.

ت- إجْمَاع العَمَل

وهو الذروة التي تتبلور حولها كل تلك الاستعدادات سالفة الذكر في حدث فعلي، فهو تنفيذ للإجماع الذي استقر في الرؤية والإرادة، وغاية هذا العمل، تأهيل الإنسان للفوز بالجنة.

وهذا العمل بمعناه الواسع هو تحويل الإرادة الإلهية إلى واقع فعلي مُعاش على الأرض بزمانها ومكانها، مهمة الإنسان فيه لا تنتهي إلى قيام الساعة. ولهذا العمل الساعي لتحقيق الإرادة الإلهية مرجعية وضوابط لا يخرج عنها، بحيث تُنظم عملية التغيير المستمرة بيد الإنسان في معطيات الزمان والمكان.

وبذلك لا تكون طبيعة العمل الذي يقوم به الإنسان هو الغاية في ذاته، فلا يركن إليه ويتوقف عنده، مهما كان نبله وكانت ضرورته، فكل تلك الأعمال والمعطيات إنما هي وسائل لتحقيق الغاية الأسمى للإنسان في هذه الحياة؛ الفوز بالجنة في الآخرة.

إن واجب الخلافة هو تحقيق أمرين في آن واحد؛ خلق الإحساس بالحاجة للتعلم، بمعنى تحريك القابليات الكامنة في أفرادها، وإمدادهم بوسائل تحقيق ذواتهم. وإن فشلت الأُمَّة في تحقيق أول هذين الأمرين فإنها تصير أمة من الجهلة السُذَّج الغارقين في سُباتهم. وإن هي أخفقت في تحقيق الأمر الثاني، فإنها تفتح البُاب أمام التفريغ الذاتي من الكفاءات وتبديدها بالهجرة، أو التدمير الذاتي من بوابة التخريب من الداخل والخارج والحرب والاستغلال

الأجنبي من الخارج. ولزام على الخلافة أن تُعبئ الأُمَّة لتوفير كل ما يلزمها للدفاع الفعال عن نفسها ضد هجمات أعدائها ومواصلة دعوتها بالفتوح والغزوات، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

التَّوحيد: مَبْدَأ النِّظام الاقْتِصادِي

لما كانت لا إله إلَّا الله شاملة لكل مناحي الحياة، جاءت الشريعة الإسلامية بتشريعات وأحكام متعلقة بالاحتياجات المادية للإنسان، بحيث يتشكل نظام اقتصادي عام، يُنتج فيه الفرد أقصى ما يستطيع إنتاجه، وبقدر يفوق احتياجاته ليبادل الفائض عن حاجته مما أنتجه مما يحتاجه من الفائض عند غيره، من مطعم وملبس ومشرب ومسكن إلى غير ذلك، واضعًا شروطً محددة للمعاملات بكافة صورها وألوانها، وباب الاجتهاد واسعٌ في هذا المجال أمام الفقهاء.

كذلك وضع الإسلام ضوابط أخلاقية للنظام الاقتصادي كمنع الربا، والاستغلال والاحتكار، وحدد مدة الخيار بين المُتبايعين، ونهي عن التسول والعيش بالتطفل على جهد الآخرين، وشرع الزكاة والصدقات لفئات مُعينة من المجتمع لا يجوز إعطائها لغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، معتبرًا أن الزكاة -كبعد اقتصادي أخلاقي- رُكنٌ ركينٌ من أركان الإسلام، وقد قاتل أبو بكر رضي الله عنه جموع العرب بعد ارتدادهم عن الإسلام بمنع الزكاة.

وحرصت الشريعة على إعالة غير القادرين والنساء الأطفال، وكفالة زوج وعيال المجاهد والمرابط على الثغور، وأمرت الناس بالسعي على الرزق ناهية عن البطالة والقعود.

والكلام في تفاصيل المعاملات المالية وتفريعات النِّظام الاقتصادي في الإسلام لا تحصره تلك الصفحات، وللنظام الاقتصادي في الإسلام دورٌ كبيرٌ في ضبط النِّظام الاجتماعي وزيادة رابطة الأخوة بين المسلمين بتكفلهم ببعضهم البعض، مع وجود بيت مال المسلمين الذي لا يردُ مُحتاجًا حقًّا.

يقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾.



فهذه السورة الكريمة تُعلن التسوية بين الدين كله، وبين معاملة مادية لصنف من الناس، وتدور حول الجفاء في معاملة اليتيم والتقاعس عن إطعام المسكين، اعتبارًا أن هذا من أمارات التكذيب بالدين، وما أعظم أن يوضع الدين في كفة مقابلة لكفة سد جوع المسكين.

ويُراعي الإسلام إكرام العامل وإعطاؤه أجره كاملًا لغير بخس، وأنه لا يُمكن أن يعمل عاملٌ في الدولة بأجرٍ أدنى من الأجر المفترض له بما يكفيه. والتَّوحيد بوصفه المبدأ الأول الذي يقوم عليه النِّظام الاقتصادي في الإسلام، فهو الذي أسس أو دولة رفاء عرفها الإنسان، فأُسِّست على نهج التَّوحيد دولة مُحررة من الاحتكار والاكتناز، راغبٌ أهلوها في العطاء دائمًا.

التَّوحيد: مَبْدَأ النِّظام العَالَمِي

جاء الإسلام مُخاطبًا لكل بني آدم باختلاف أجناسهم وأعراقهم وثقافاتهم، فكُلهم مجموعون على الأخوة الإنسانية بنسبتهم لآدم عليه السلام، وكُلهم مكلف من الله تعالى بتحقيق التَّوحيد وتجنب الشرك، ولكن تلك الأُخوة ليست مطلقة، أو بمعنى أدق ليست هي المعيار الأسمى المُحدد لأُسس الولاء والبراء، فهو إنما يتحقق في الإسلام على أساس العقيدة لا على شيء آخر كما يُروج البعض الآن إلى "دين الإنسانية" الذي تُنحى فيه عقيدة الإسلام بولائه وبرائة، ويُستعاض عنها بهوى بشري.

وجاء الإسلام بمسعى إعادة تنظيم العالم على أساس الأحكام والتشريعات التي جاء بها مُحمد ﷺ، باعتبار أن الإسلام هو الذي يجب أن يحكم العالم بأسره لا شيءَ سواه، في مجتمع واسع الكلمة العليا فيه لله، يخلفه الإنسان في تنفيذ أحكامه التي بها أمر. ولا يمنع استعلاء الإسلام على غيره، وسلطانه على الجميع؛ من عقد المعاهدات والاتفاقيات بضوابط محددة، وفق ما يرى خليفة المسلمين ما فيه مصلحة الأُمة، وتُعتبر لاغية حال خرقها أو الاعتداء على أحد أفراد المجتمع الإسلامي بغير وجه حق. والإسلام بسيادته واستعلائه، يُحطم كل الأفكار والتصورات التي يضعها النِّظام العالمي يومًا تلو الآخر، ويعتبرها كلها من أمر الجاهليَّة، ما لم تكن ربانية المصدر، ولا يقبل أيًّا منها أن يحكم أو يتواجد تحت ظله وفي بُنيانه.

إن تواجد أي نظام جاهلي في أي بقعة من أرض الله، يوجب على المسلمين استئصالها والقضاء عليها قبل اتساعها، وتعاظم خطرها، باعتبار أن ذلك هو غرض الدعوة أصلاً؛ إلَّا يكون ثمة شركٌ في الأرض ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، وباعتبارٍ آخر أن تركها تمدد يعني ولا محالة بلوغ أثرها للمسلمين، فتقع الفتنة في نفس ضعيف الإيمان، وهو مناقض كذلك لطبيعة الدعوة التي جاءت ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

تم بحمد الله...